

ثاني اثنين

ثاني اثنين
أدهم شرقاوي

الطبعة الأولى 2020

دار كلمات للنشر والتوزيع
دولة الكويت / محافظة العاصمة
بريد إلكتروني

Dar_Kalamat@hotmail.com

الموقع الإلكتروني:
www.kalamat.com

جميع الحقوق محفوظة للناس: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو
أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل
من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

* All rights reserved. No part of this book may be reproduced,
stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any
means without the prior written permission of the publisher.

ISBN:

ردمك:

ثاني اثنين

رواية

أدهم شرقاوي

2020

kalamat

الإهداء

هذه الرواية مُهداة إلى الرَّجل الذي لم يَكُنْ نبيًّا
ولكنَّه لم يَكُنْ أيضًا من النَّاسِ
كان يقفُ في منزلةٍ وحدَه
أدنى من الأنبياءِ قليلًا
وأعلى من النَّاسِ كثيرًا
إلى أبي بكر الصديق

«إن الله بعثني إليكم
فقلتم: كذبتَ
وقال أبو بكر: صدقَ
وواساني بماله ونفسه، فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟!»

النَّبِيُّ ﷺ

أَيَنْقُصُ الدِّينُ وَأَنَا حَيٌّ؟!

أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ

أما قبل:

وأتى من بعيد تفوح منه رائحة الصحراء...
عربي خالص لا شية فيه!
نحيل كأنه سنبلة قمح!
دقيق السّاقين كأنه عدّاء، ولكن ثمة شيء فيه يخبرك أنّ له
سباقاً غير سباقات النّاس!
وجهه أبيض نجا من شمس الصحراء بأعجوبة!
ظهره فيه انحناء قليل كأنه كان يحمل شيئاً ثقيلاً على كتفيه
طوال عمره، ولكن نظراته الثاقبة تخبرك أنّ هذا الحِمْل لم
يكن بإمكان غيره أن يحمله!
لحيته مخضوبة بحناء مائلة إلى الحُمرة كأنّ الشمس لحظة
المغيب لم تجد لها مأوى غيرها!
ثيابه بالية، ولكن الرجل عليه مسحة عراقية التاريخ!
أردتُ أن أسأله: من أنت؟!
ولكن ثمة رجال تفقدُ لغتك في حضرتهم، وقد كان واحداً منهم!
أطلتُ النظر إليه وصمتي يُكبلني، وفضولي يقتلني لأعرف
من هو ولكنه أزعج عني كل هذا حين قال: لك السّلام.
صوته عذب كأن الحروف تخرج من جبر إسماعيل لا من
فمه، فيه رِقّة كدعوات الأمهات، وخشوع كتلاوة سورة الرحمن!

رددتُ عليه على الفور: ولكَ السَّلام.

ثم قال: من الرجل؟

فقلتُ: من العرب، وأنتَ؟

- أبو بكر الصديق!

- أبو بكر مؤدَّب المرتدين؟!

- أبو بكر ثاني اثنين إذ هما في الغار ولا لقبَ أحبَّ إليَّ

من هذا!

هو أبو بكر إذا، الرجلُ العداءُ الذي كان يركضُ إلى الله
بقلبه فلم يسبقه أحد! والذي حمل الإسلام على كتفيه كما
لم يفعل أحد. وفي حضرة أبي بكر لا يعرفُ المرءُ ما يفعل،
أنا أمام معجزة من لحم ودم. والمعجزات لا تمرُّ بنا كل يوم!

أما بعد:

عندما ينتهي الأنبياء يبدأ أبو بكر، وعندما ينتهي أبو بكر يبدأ الناس! هكذا هو فئة وحده! يأتي دائماً أولاً ومن المحال أن يسبقه إلى الله أحد! وحين تعلّق الأمر بالسخاء والصدقة أتى عمر بن الخطاب بنصف ماله ممّياً نفسه أن يسبق أبا بكر هذه المرّة، فوجد أن أبا بكر قد جاء بماله كله! وحين تعلّق الأمر بالثبات والشجاعة فاق أبو بكر الجميع كالعادة!

أبو بكر محفور في أذهاننا على أنه ذاك الشخص العذب الرقيق، وهذا صحيح فهو أرحم الأمة بالأمة بشهادة النبي ﷺ، وعمر بن الخطاب محفور في أذهاننا على أنه ذاك الشخص الصلب، القوي الشرس إذا ما تعلّق الأمر بالدفاع عن الإسلام، وهذا صحيح أيضاً. ولكن أبا بكر أثبت في مواقف كثيرة أنه أصلب وأقوى وأشرس الصحابة جميعاً بمن فيهم عمر بن الخطاب نفسه!

كان أبو بكر يُمثل القوة الناعمة، هذه القوة التي تلين حتى يعتقّد المرء أنها لا تستطيع أن تشتدّ أبداً، ثم إذا ما جدّ الجدّ، ووقع الفأس في الرأس، وجدت تلك النعومة كسّرت عن

أنيابها، ففاجأت أعداءها وأحبابها على السواء! الغزال الناعم كان بإمكانه أن يتحول في الظرف الحالِك إلى أسد هصور، وهذا هو أبو بكر باختصار!

وكي لا يكون الكلام رجماً بالغيب، وادعاءً من غير دليل، فلنقارن بين أبي بكر وعمر في بعض المواقف، وهذه المقارنة ليست انتقاصاً من عمر بن الخطاب، معاذ الله، فعمر حيث يضع قدمه أتشرف أن أضع رأسي! ولكن لأن عمر في حزمه وقوته لا يُجارى ومع هذا أبو بكر سبقه! المقارنة هنا لشرح ما أسميته القوة الناعمة التي يمثلها أبو بكر، وهي ضرورة لفهم شخصية أبي بكر بمختلف جوانبها، أبو بكر كان رقيقاً كوردة، بالمقابل كان له شوك قاسٍ يجعل قطافه مستحيلاً!

يوم الحديبية غضب الصحابة رضوان الله عليهم جميعاً لله، إذ رأوا في بنود الصلح إجحافاً، حتى أنهم أول الأمر لم يمثلوا لأمر النبي ﷺ حين أمرهم أن يحلقوا رؤوسهم وينحروا هديهم ويفكوا إحرامهم! فدخل النبي ﷺ خيمته وقال لأم سلمة: يا أم سلمة ما شأن الناس؟! فقالت له: يا رسول الله قد دخلهم ما رأيت، فلا تكلمنَّ منهم إنساناً، واعمدْ إلى هديك فانحره، واحلق، فلو فعلت ذلك فعلوا مثلك!

فقام النبي ﷺ فلم يكلم أحداً، فنحر هديه، وحلق رأسه،
فلما رأوه، قاموا فنحروا وحلقوا!

وكان عمر بن الخطاب يومها من بين الصحابة الذين
غضبوا لله، أما أبو بكر فكان كالعادة فئة وحده!
جاء عمر إلى النبي ﷺ يفيضُ حُباً لله ورسوله، يملؤه الغضب
لهذا الدين يريد أن يكون عزيزاً، وقال له: يا رسول الله ألسنا
على حق وهم على باطل؟
قال: بلى.

قال: أليس قتلانا في الجنة، وقتلاهم في النار؟
قال: بلى.

فقال عمر: ففيم نعطي الدِّينَةَ من أنفسنا، ونرجع ولمّا
يحكم الله بيننا وبينهم؟!
فقال له النبي ﷺ: يا ابن الخطاب إني رسول الله، ولن
يضيعني الله!

فانطلق عمر ولم يصبر متغيظاً، فأتى أبو بكر وقال له: يا أبا
بكر ألسنا على حق وهم على باطل؟
فقال له أبو بكر: بلى.

فقال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟
فقال: بلى.

فقال عمر: فعلام نعطي الدِّينَةَ في ديننا؟!
فقال له أبو بكر: يا ابن الخطاب إنّ الرجل لنبي، ولن
يُضيعه الله، فالزم غرزهُ أي تمسك بأمره!

هذه إحدى نقاط قوى أبي بكر، التسليم الكامل لأمر الله ورسوله دون جدال ومناقشة. والتسليم والانصياع يحتاج أحياناً إلى قوة أكبر من المعارضة والجدال! ثم دارت الأيام وتبين للجميع أن صلح الحديبية التي حسبوها هزيمة معنوية كانت فتحاً عظيماً، وهكذا انتصرت قوة أبي بكر الناعمة كما هي دوماً!

وحين أطلت عائشة من حجرتها على الصحابة وقالت لهم أكثر جملة مؤلمة في تاريخ هذا الكوكب: مات رسول الله! رفض عمر بن الخطاب تصديق الخبر، وارتفع صوته في المسجد من هول الفاجعة، واعتبر أن النبي ﷺ إنما ذهب لميقات ربه كما فعل موسى عليه السلام من قبل، ثم توج هذا كله بأن سل سيفه، وقال: والله ليرجعن رسول الله، فليقطعن أيدي رجال زعموا أنه مات!

ومعذور والله عمر، إنني أكتب عن حادثة موت النبي ﷺ بعد ألف وأربعمئة سنة، والألم يعتصرني، وقلبي ينفطر وأنا أتحسس قول عائشة مات رسول الله! صعب جداً عليّ بعد مضي هذه القرون أن أتخيل أن النبي ﷺ قد ضمه قبر، وأهيل عليه التراب! فكيف لو كنت يومها معهم ونزل الخبر عليّ فجأة كالصاعقة؟!

ولكن أبا بكر كان له شأن آخر، هذا ليس موضع رقة وإنما

موضع صلابة وتجلد، وأبو بكر يكون دائماً كما تقتضي
المواقف له أن يكون! دخل المسجد ورأى عمرَ في قمة
غضبه وحزنه وتأثره، فلم يكلمه، وإنما دخل بيت عائشة،
واقترَب من النبي ﷺ وهو مسجىً مغطىً، فكشف الغطاء عن
وجهه الشريف، وقبَّله، وقال له: بأبي أنت وأمي، ما أطيبك
حياً وميتاً! أما الموتة التي كتبها الله عليك فقد ذقتها، ثم لن
يصيبك بعدها موتة أبداً!

ثم ردَّ الغطاء على وجهه، فخرج وعمر ما زال يخطبُ في
الناس، فقال له: على رِسلك يا عمر فأُنِصْتُ، فلم يلتفتْ إليه
عمر وتابع كلامه، فلما رآه أبو بكر على هذه الحال، تركه،
وأقبل على الناس وقال: أيها الناس، إنه من كان يعبدُ محمداً فإن
محمداً قد مات، ومن كان يعبدُ الله فإنَّ الله حي لا يموت، ثم
تلا ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ
قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ
شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾

فعلم الناس أن النبي ﷺ قد مات حقاً!

لو كان أبو بكر رقيقاً فقط لكان أولى بالانهيار يومها
من عمر، ولكن أبا بكر قوة ناعمة. رقيق في موضع الرقة،
ثابت في موضع الثبات، لهذا لم يكن مستغرباً أن يكون أكثر

الصحابه ثباتاً هو أكثرهم رقة، إنه أبو بكر النموذج الفريد الذي لا يوجد منه نسخة ثانية!

أما القوة الناعمة فكشّرت عن أنيابها يوم ولي أبو بكر الخلافة وارتدت العرب، واجتمع مجلس الدفاع الإسلامي الأعلى بقيادة الخليفة الجديد يبحثون ما يفعلون أمام هذا المأزق. كان رأي جنرالات التوحيد يومها أن يُفاوضوا المرتدين، أما أبو بكر وحده من دون الجميع قرر أن يُحاربهم! الرجل الأسيف الذي كان يُكيه القرآن لبس لأمة الحرب حين قرر الفرسان الأشداء أن يخلعوها! قال له عمر بن الخطاب يومها: كيف تقاتلتهم وقد قال رسول الله ﷺ: أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِنْ قَالُوا فَقَدْ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا؟!

فقال له أبو بكر: واللّه لأقاتلنّ من فرّق بين الزكاة والصلاة، ووالله لو منعوني عقال بعير كان يؤدّونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه!

فقال له عمر: يا خليفة رسول الله تألّف الناس وارفق بهم. فجذبه أبو بكر من ثوبه وقال له: أجبار في الجاهلية، خوار في الإسلام يا عمر؟! إنه قد انقطع الوحي، وتم الدين، أينقص الدين وأنا حي؟!!

فمضوا على بركة الله، وأدّبوا المرتدين، وأعادوا القبائل إلى حظيرة الإسلام، وأثبت أبو بكر مرة أخرى أنه يرى بنور الله، وأنه وإن كان أرق من وردة فهو أيضاً أصلب من الصخر!

ثم ها هو أبو بكر هنا... فلماذا نحكي عنه ما دام بإمكانه أن يحكي هو عن نفسه، لا شيء أروع من أن نسمع الحكاية من فم الحكاية نفسها!

أَلْتَفِتْ إِلَيْهِ وَأَسْأَلْهُ: يا خليفة رسول الله، متى سمعتَ أول مرة بالدين؟

- أول مرة سمعتُ بالدين قبل البعثة إذ كنتُ يوماً جالساً بفناء الكعبة، وعلى مقربة مني يجلسُ زيدُ بن عمرو بن نفيل، فمرَّ به أُمَيَّة بن أبي الصلت فقال له: كيف أصبحتَ يا باغي الخير؟

قال: بخير.

فقال أُمَيَّة: فهل وجدتَ؟

قال: لا، ولم أَلْ من طلب.

فلما سمعتُ حديثهما، خرجتُ أبحتُ على ورقة بن نوفل، وكان كثير النظر إلى السماء، كثير همهمة الصدر، فلما وجدته استوقفته، ثم قصصْتُ عليه ما كان بين الرجلين عند الكعبة.

فقال: نعم يا ابن أخي، يخرجُ نبيُّ من أوسط العربِ نسباً، ولي علم بالنسب، وقومك أوسط العربِ نسباً، وما أحسبه إلا أن يكون من قريش.

- فما سبب الحوار بين زيد بن عمرو بن نُفيل، وأمّية بن أبي الصلت، أعني أليس مستغرباً أن الرجلين يتحدثان عن نبي آخر الزمان وهما من قريش التي تعبدُ الأصنام؟
- لم يكن الرجلان على دين قريش!
- وكيف هذا؟

- أما زيد بن عمرو بن نُفيل فكره دين قريش، ورأى أن عبادتهم شرك، فخرج إلى الشام قبل البعثة يبحث عن الدين الحق، فلقي عالماً من علماء اليهود، فقال له: أخبرني عن دينكم، فلعلّي إن رأيتُ الحقَّ فيه اتبعته.
فقال له: لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله!

فقال له زيد: ما أفرُّ إلا من غضب الله، وما أحمل من غضب الله شيئاً وأنا أستطيع أن لا أحمله، فهل تدلني على غيره؟

- ما أعلمه، إلا أن تكون حنيفاً.
- ما الحنيف؟
- دين إبراهيم، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولا يعبدُ إلا الله!

فخرج زيد فلقي عالماً من النصارى، فقال له: أخبرني عن دينكم فلعلّي إن رأيتُ الحقَّ فيه اتبعته.
- لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله.
- ما أفرُّ إلا من لعنة الله، وما أحمل من لعنة الله شيئاً وأنا

أستطيع أن لا أحملها، فهل تدلني على غيره؟
- ما أعلمه، إلا أن تكون حنيفاً.

- ما الحنيف؟

- دين إبراهيم، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولا يعبدُ إلا الله.

فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم عليه السَّلام، خرج من عندهم عائداً إلى مكة، وقال: اللهمَّ إني أشهدك أنني على دين إبراهيم.

وكان زيد هو الذي جاء بالحنيفية دين إبراهيم عليه السَّلام إلى مكة، وكان يوماً مسنداً ظهره إلى الكعبة، يقول للناس: يا معشر قريش، والله ما منكم من أحد على دين إبراهيم غيري!

وكان دمث الأخلاق، حلو المعشر، يصل الرحم، ويكرم الضيف، ويحيي المؤودة، ويقول للرجل إذا أراد أن يتد ابنته: لا تقتلها أنا أكفيك مؤونتها! فيأخذها منه، فإذا ترعرعت يقول قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت أبقيتها عندي، وأنا أكفيك مؤونتها!

وكان يأبى أن يأكل ما تذبح قريش، لأنه علم في توحيده الخالص أن الذبح إنما يجب أن يكون لله، وقد جلس يوماً على مائدة مع النبي ﷺ قبل بعثته، وكان شيخاً كبيراً يومها، فلما وُضع الطعام أبى النبي ﷺ أن يأكل من ذبائح قريش لذات

السبب، وكذلك لم يأكل زيد من الذبائح، وقال لقريش: إني لست أكلُ مما تذبحون على أنصابكم، ولا أكلُ مما لم يُذكر اسم الله عليه!

وكان يعيبُ على قريش ذبائحهم، ويقول: الشاة خلقها الله، وأنزل لها من السماء الماء، وأنبت لها من الأرض العشب، ثم تذبحونها على غير اسم الله!

- يا الله، يا له من رجل يا خليفة رسول الله، خرج يجوبُ الأرض باحثاً عن الحق.

- نعم يا بُني يا له من رجل، هذا ليعلم الناس أنه من أراد الله بصدقٍ يسّر الله له الطريق إليه.

- فما فعل زيدٌ بعد البعثة؟

- لم يدرك زيدُ البعثة، وإنما توفي قبلها بخمس سنوات، دون أن يعلم أن ذلك الذي جلس يوماً معه على مائدة واحدة، ورفض أن يأكل من ذبائح قريش هو نبيُّ آخر الزمان!

- فهل ذكر النبي ﷺ زيداً بعد البعثة بشيء؟

- أجل يا بُني، لقد ذكره كما يليقُ بمؤمن صادق أن يُذكر.

- وكيف هذا يا خليفة رسول الله؟

- كان زيدُ بن عمرو بن نفيل صديقاً لعامر بن ربيعة، فقال له يوماً: يا عامر إني خالفتُ قومي، واتبعْتُ ملة إبراهيم وإسماعيل، وما كانا يعبدان، وكانا يصلّيان إلى هذه القبلة،

وأنا أنتظرُ نبياً من بني إسماعيل يُبعث، ولا أراني أدركه لكبر سني، وأنا أو من به وأصدقّه، وأشهدُ أنه نبي، فإن طالت بك حياة، فأقرئه مني السّلام!

- يا الله! ما هذا الإيمان الذي يقفُ أمامه المرءُ إعجاباً وإجلالاً؟

- هو كذلك والله.

- فهل أبلغُ عامراً سلام زيدٍ إلى النبي ﷺ؟

- أجل، لقد فعل، فما كان الله إلا أن يصدّق هذا الرجل الذي صدّقه، لمّا أسلم عامر بن ربيعة، جاء إلى النبي ﷺ وأخبره بالذي كان بينه وبين زيد، وأبلغه سلامه له. فردّ النبي ﷺ السّلام، وترخّم عليه، وقال: «لقد رأيته في الجنة يسحبُ ذيولاً»!

- فهل كان لزيد من أولاد؟

- أجل يا بُني، ابنه سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة، ذرية طيبة بعضها من بعض.

- فهل ذكر النبي ﷺ لسعيد شيئاً عن أبيه؟

- أجل قد فعل، فقد قال يوماً لسعيد: إن أباك يُبعثُ يوم القيامة أمةً وحده بيني وبين عيسى.

- هذا عن زيد بن عمرو بن نُفيل يا خليفة رسول الله، فماذا عن أمية بن أبي الصلت؟

- تلك قصة أخرى، مشرقة في بدايتها، محزنة في نهايتها.

- وكيف ذلك؟

- أمية بن أبي الصلت شاعر جاهلي أبوه من ثقيف، وأمه من قريش، سكن الطائف، وأبوه الصلت كان شاعراً أيضاً، ولم يكن الطائف كثير الشعر، إذ أنّ الشعر كان يكثر في العرب التي تخوض الحروب. كالأوس والخزرج، أو القبائل التي تُغير أو يُغار عليها. لهذا قلَّ شعر الطائف لمسالمتها العرب، وقلَّ شعر قريش لحرمتها عند العرب إذ لم تكن تُحارب أو تُحارب إلا نادراً، على أنّ أمية بن أبي الصلت كان أشعر أهل الطائف في زمانه.

- فماذا عن حديثه مع زيد وانتظاره نبيّ آخر الزمان؟
- كان أمية في الجاهلية يتصلُّ بأهل الكتاب. ويسمع أخبارهم، ويعلم أن نبياً قد حان وقت خروجه، وكان على التوحيد. فلم يكن يعبد الأصنام في الجاهلية، وقد ترك في شعره من معاني التوحيد ما لم يتركه أحد من شعراء الجاهلية فكان يذكر الجنة والنار، والملائكة، والحشر والحساب.

- وهل أدرك البعثة أو توفي قبلها كما حدث لزيد؟
- أدرك أمية بن أبي الصلت البعثة، ولكن للأسف لم يُسلم!

- لم يُسلم وقد كان ينتظرُ النبيَّ ﷺ بشغف؟
- هذا ما حدث، فلما بلغه مبعث النبيِّ ﷺ لم يؤمن به، إذ يُقال أنه كان يُمنى نفسه أن يكون هو نبي آخر الزمان.

- ومتى مات؟ أقصد ألم يعيش ما يكفي بعد البعثة ليرجع إلى الحق ويسلم؟
- بلى عاش ما يكفي، فقد توفي في السنة التاسعة للهجرة، قبل وفاة النبي ﷺ بعام واحد!
- فهل ذكره النبي بشيء من حديثه؟
- نعم لقد ذكره، فقد كان النبي ﷺ معجباً بشعره لما يتضمنه من معاني التوحيد، وكان كلما سمع شعره قال عنه: آمن شعره وكفر قلبه!
- وسمع مرة شعراً له فقال: كاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم.

- هل يسمح لي خليفة رسول الله أن أرجع به أبعد زمناً مما نتحدث فيه الآن، فاسأله عن شيء سمعته؟
- فإلى أين تريد أن ترجع تحديداً؟ وعن أي شيء تريد أن تسأل؟
- سمعتُ أنك لم تسجد لصنم قط في الجاهلية، فهل هذا صحيح؟

- أجل يا بُني، وهذا من فضل الله وكرمه على عبده أن نَزَّهَ جبهته من السجود لغيره حتى في الجاهلية حين ما كنتُ أعرفُ ما الدين وما الإيمان، فحين ناهزتُ الحلم أخذني أبي أبو قحافة من يدي ثم انطلق بي إلى مخدع فيه الأصنام، ثم قال لي: هذه آلهتك الشُّم العوالي، وتركني وذهب، فدنوتُ من الصنم وقلتُ: إني جائع فأطعمني، فلم يرد! فقلتُ: إني عارٍ فاكسني، فلم يرد! فألقيتُ عليه حجراً فخرَّ على وجهه.

- ألا ترى في هذا اصطفاً مبكراً لك يا خليفة رسول الله؟
- ما ينبغي للمرء أن يُزكي نفسه يا بُني، ولكني أحمدُ الله سبحانه إذ جعلني من القلة النادرة التي لم تُشرك به في الجاهلية وإن لم تكن تعبده حقَّ عبادته إذ لم يكن بعد إسلام ولا نبوة.

- ولكنني ما زلتُ أرى في الأمر اصطفاءً، فكما اصطفى الله نبيّه من الشركِ والفواحش، اصطفى صاحبه وخليفته، فأنت الوحيد الذي يُقال له خليفة رسول الله، ومن جاؤوا بعدك إنما هم خلفاؤك أنت، لا خلفاؤه هو، وقد كان حريّاً بمن سيحمل هذا اللقب الفاخر، والمركز المرموق أن يكون فيه شيء من اصطفاء النبوة.

- ما أحسبك يا بُني إلا يغلبُ عليك حسن ظنك بي، وما زلتُ أحمدُ الله على العصمة من الشرك، ولا أعلو بها على الناس ولا أفخر، فلولا أن تداركتني رحمة ربي لمسني شيء من الشرك مما مسَّ القوم.

- يا لتواضعك!

- يا بُني إن العاقل من اتهم نفسه في الشر، واعترف لربه بالخير، وما أزيد على أن أحمده على أن عصمني من الشرك.

- حسناً، فماذا عن الخمر يا خليفة رسول الله؟

- ما بها؟

- هل شربتها في الجاهلية؟

- لا والله ما عرفتُ طعمها، فقد كرهتها مبكراً بفضل الله.

- وكيف كرهتها وأنت لم تذوقها؟

- يا بُني أن العاقل من اتَّعَظَ بغيره، والجاهل من كان موعظةً لغيره، وإنني أحمدُ الله أن جعلني اتَّعَظُ بغيري، ولم يجعلني عظةً لغيري.

- وكيف اتعظت بغيرك في مسألة الخمر؟
- مررت في الجاهلية وأنا في ريعان شبابي برجل سكران، يمسك بعرة البعير ويقربها من فمه يريد أن يأكلها، فإذا صارت قريباً من فمه، شم ريحها فألقاها من يده، وهو يفعل هذا مراراً وتكراراً! فقلت في نفسي واللّه لا أشربها قط، إنها تذهب بالعقل. وإذا ذهب العقل ذهبت معه المروءة، ولم أكن لأفرط في مروءتي.
- وما زلت تصرّ على أنه لا اصطفاء في الأمر؟
- ما زلت أحمّد الله على العافية ولا أزيد!
- فماذا عن صداقتك مع النبي ﷺ في الجاهلية؟
- كنت والنبي ﷺ أتراباً، فكان يكبرني بعامين وبضعة أشهر، وكان أحسن قريش خلقاً، وأصدقها حديثاً، وأوثقها أمانة، فالتقينا كما يلتقي فتیان القبيلة الواحدة، فنشأت بيننا صداقة متينة، أحببته وأحبّني، وكان أثيراً على قلبي، وكنت أثيراً على قلبه، والمرء يعرف مكانته في قلوب الناس!
- هنيئاً لك.
- أي واللّه هنيئاً لي، فعلى مثله يهنأ المرء ويغبط.
- فماذا كنت تعمل في الجاهلية؟
- كنت تاجراً، وكذلك كان أغلب رجال قريش، وكنت أذهب للتجارة في رحلتي الشتاء والصيف، في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام، فأشتري وأبيع،

وأصدق الحديث، ولا أغش، فبارك الله لي في رزقي،
وكان رأس مالي عند البعثة أربعين ألف درهم.

- أي أنك كنت من أثرياء مكة قبل البعثة؟

- كنت ثرياً في مالي فقط، فقيراً في ديني، فلما نطقتُ
بالشهادتين صرتُ أثرى أهل الأرض!

- أثرى أهل الأرض بالشهادتين؟

- يا بُنيَّ إن الله يعطي الدنيا لمن يُحبه ولمن لا يُحبه،
ولكنه لا يعطي هذا الدين إلا لمن يُحبه، إنَّ الله أعطى
الدنيا كلها لسليمان عليه السلام، وكذلك أعطاهَا
لنمرود، فلو كانت معياراً للتفاضل بين الناس، لما
أعطاهَا لنبي وطاغية!

- صدقتَ يا خليفة رسول الله، فحدثني عن قصة إسلامك
ما دمنا قد ذكرناها فقد حان وقتها.

- كل ما في الأمر أنني كما أخبرتك كنتُ صديقاً للنبي ﷺ،
وكنْتُ أعرفُ أنه صادق لا يكذب على الناس حتى يكذب
على الله، وكنْتُ جالساً يومها في مجلس من مجالس
قريش، فذكروا أن محمداً ﷺ يعيبُ عليهم آلهتهم ودينهم،
ويقول أنه جاء بدينٍ خير من دينهم... فخرجتُ أبحثُ
عنه أريدُ أن أسمع منه بشأن هذا الذي يتحدثون به، فلقيته،
فقلتُ له: يا أبا القاسم فقد تُك اليوم في مجلس قومك،
وقد ذكروك واتهموك بالعيبِ لآبائهم وأمهاتهم وآلهتهم.

فقال لي: يا أبا بكر إني رسول الله، وإنني أدعوك إلى الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد. فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك يا محمد رسول الله.

- هكذا بكل بساطة دون أن تتريث أو أن تُقلِّب الأمور في عقلك؟

- يا بُنَيَّ بعض الكلام ينزل في قلبك مباشرة، والحمد لله أن جعلني أول هذه الأمة إسلاماً وتصديقاً وتسليماً، وكيفيني شرفاً شهادة النبي ﷺ حين قال: ما دعوتُ أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كبوة وتردد ونظر، إلا أبا بكر، فحين دعوته أجباني وما تردد! - هنيئاً لك هذه الشهادة يا خليفة رسول الله.

- بارك الله بك يا بُنَيَّ.

- فما أول ما فعلته بعد إسلامك؟

- أول ما أسلمتُ نظرتُ فيمن أثق ممن أعرف وأتوسم به الخير، وبدأتُ أدعوهم إلى الله - فمن أسلم منهم على يدك؟

- ثلة قليلة العدد، كثيرة البركة، اصطفاهم الله بأن كانوا حجر الأساس لهذا الدين العظيم، وهم الزبير بن العوام، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وعثمان بن مظعون، وأبو عبيدة بن الجراح، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو سلمة بن عبد

- الأسد، والأرقم بن أبي الأرقم، وقد دعوتهم أفراداً
سراً، وجئتُ بهم إلى النبي ﷺ فأسلموا بين يديه.
- كل هؤلاء في صحيفتك؟
- فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده يا بُني.
- فماذا عن أهل بيتك؟
- ما كان لي أن أدعو الناس إلى الخير، وأنسى أهل بيتي،
فالأقربون أولى بالمعروف، لقد دعوتُ أهل بيتي،
فأسلمتُ زوجتي أم رومان، وأسلم أولادي عبدالله،
وعائشة وأسماء، وخادمي عامر بن فهيرة.
- وهؤلاء العظماء في صحيفتك أيضاً؟
- قلتُ لك من قبل، هذا من فضل الله يؤتيه من يشاء.
- فماذا عن إسلام أبيك وأمك يا خليفة رسول الله؟
- أما أبي فتأخر إسلامه إلى يوم فتح مكة، وأما أمي
فأسلمتُ باكراً في بداية الدعوة إلى الله.
- فهل يأذن خليفة رسول الله أن يحدثني عن إسلام أمه؟
- لك هذا يا بُني، أما يوم إسلام أمي فكانت بدايته شاقة
عسيرة، ثم منَّ الله على عبده أبي بكر بأن جعل خاتمته
سعيدة، اجتمعنا يومها في دار الأرقم بن أبي الأرقم
ثمانية وثلاثين رجلاً ليس غيرنا على ظهر الأرض من
يوحده ويعبده حقَّ عبادته! فألححتُ على النبي ﷺ في
الجهر بدعوتنا على مرأى ومسمع من قريش.
- فقال لي: يا أبا بكرٍ إنّنا قليل.

فما زلتُ أُلحُّ عليه حتى أجابني، فخرجنا إلى الكعبة،
فقمْتُ في الناس خطيباً، وكنتُ أول خطيب في الإسلام يدعو
إلى الله بعد النبي ﷺ

- فهل سمحتُ لك قريشُ يومها بالكلام هكذا جهاراً نهاراً
عند الكعبة؟

- أوتحسبُ أن قريشاً كانت بتلك السماحة؟

- فما الذي حدث إذاً؟

- كنتُ سأحدثُك ولكنك قطعتَ عليَّ حديثي!

- أعتذرُ منك يا خليفة رسول الله، ووالله ما هي إلا
اللهفة، وحب المعرفة، فاعذر فضولي.

- لا بأس عليك يا بُني، المهم وأنا أخطبُ في الناس، قام
إليَّ رجالٌ من قريش يضربونني ضرباً شديداً، ودنا مني
عتبة بن ربيعة وضربني على وجهي بنعليه المخصوفتين،
حتى ورم وجهي، وأغشيَّ عليَّ، فحملوني إلى داري
وهم لا يشكون في موتي، فجاء قومي بنو تيم وقالوا
لقريش: والله لئن مات أبو بكر لنقتلنَّ عتبة بن ربيعة.
ثم رجعوا إليَّ فكلَّموني وأنا لا أجيب من شدة ما نزل
بي من الضرب واللطم، ثم استفتتُ قبل المغرب، وكان
أول ما قلتُ لهم: ما فعلَ رسول الله؟

- تنسى نفسك وما أصابك وتساءل عن رسول الله؟

- وما لي لا أسأل عنه، فإنما أنا رجل من المسلمين، وهو
الدين كله، وما يسرّني أن أعافى جسدي ويُشاك هو بشوكة.

- بهذا القلب سبقتَ الناس يا أبا بكر!
- يا بُني إن هذا الدين مسؤولية وليس انتساباً، السر يكمن في نظرتك للأمر، فحين ترى أنك مجرد تابع لن تفعل إلا الفرض فقط، أما حين تحمل هذا الدين على كتفك فعليك أن تهبه وقتك ودمك ومالك.
- بهذا الفهم سبقتَ الناس يا خليفة رسول الله، فما الذي حدث بعد ذلك؟
- قالوا لأمي: أنظري أن تُطعميه شيئاً أو تسقيه إياه، فأبيت أن أكل أو أشرب حتى أعلم ما حلَّ بالنبي ﷺ، فلما يسّسوا مني، وخرجوا عني وخلوتُ بأمي قلتُ لها: ما فعلَ رسول الله؟
- فقالت: والله ما لي علم بصاحبك.
- فقلتُ: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه.
- فلماذا أم جميل بنت الخطاب تحديدًا؟
- لأنها من أوائل النساء اللاتي أسلمن لله ورسوله مع زوجها سعيد بن زيد، وهي أخت حبيبي وصديقي عمر بن الخطاب، ولم يكن قد أسلم بعد، وكان بنو عدي يخفون إسلامهم إذا أسلم الواحد منهم خوفاً من بطشه، فسبحان من جعل أشد الرجال عداءً لدينه، أشدهم فيما بعد دفاعاً عنه.
- فما الذي حدث بين أمك وأم جميل بنت الخطاب؟
- ذهبتُ أمي إليها وقالت لها: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله.

فقالت لها أم جميل: ما أعرفُ أبا بكر، ولا محمد بن عبد الله، وإن كنتِ تُحِبِّينَ ذَهَبْتُ مَعَكِ إِلَى ابْنِكِ.

فقالت لها أمي: نعم.

فجاءت بها أمي إليّ، فلما رأتني على هذه الحال قالت: والله إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسقٍ وفجور، وإنني أرجو أن ينتقم الله لك منهم.

فقلتُ: ما فعلَ رسول الله؟

فقالت: هذه أمك تسمع!

فقلتُ: لا بأس، لا عليكِ منها.

فقالت: هو بخير، سالم، صالح.

فقلتُ: أين هو؟

فقالت: في بيت الأرقم بن أبي الأرقم.

فقلتُ: والله لا أذوق طعاماً ولا أشربُ شراباً حتى أرى

رسول الله!

فانتظرنا حتى إذا هدأت الحركة، وسكن الناس، خرجتا بي أتكى عليهما من شدة ما أصابني، حتى دخلتُ على النبي ﷺ، فجعلتُ أقبله، فرقّ لحالي، فقلتُ له: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أمي برةٌ بولدها، وأنتَ مبارك، فادعُ لها، وادعها إلى الله، عسى الله أن ينقذها بك من النار. فدعا لها النبي ﷺ، ثم دعاها إلى الله. فأسلمت... فنسيْتُ من الفرح بإسلامها كل الذي أصابني.

- هل يسمح لي خليفة رسول الله أن أسأله عن أمرين
استوقفاني في هذه القصة؟

- تفضّل يا بُني.

- لماذا أقسم قومك على قتل عتبة بن ربيعة إذا أنت متّ،
فهل كانوا على دينك؟

لا لم يكونوا على ديني، وأغلبهم كان على دين قريش
وعتبة بن ربيعة، ولكنها العصبية القبلية، فالعرب لم تكن تترك
ثأرها، ومن ترك ثأره في عرفهم نزل من أعين الناس، واتهموه
في شجاعته ومروءته.

- حسناً فهمتُ، الأمر الثاني: لماذا أنكرتُ أم جميل بن
الخطاب معرفتها بك وبالنبي ﷺ، وهل كانت تخشى
على نفسها؟

- لا والله ما كانت تخشى على نفسها بقدر ما كانت
تخشى على النبي ﷺ ودعوته، ولو كانت تخشى على
نفسها ما طلبتُ من أمي أن تأتي إلي، ولكننا تربينا على
قضاء حوائجنا بالسر والكتمان، وقد كانت فاطمة بنت
الخطاب امرأة عاقلة حكيمة، أما رأيت أنها حين سألتها
عن النبي ﷺ، قالت: هذه أمك تسمع! لقد خشيتُ
على الإسلام حتى من أمي، وما تكلمتُ إلا حين
أخبرتها أنه لا بأس عليها من أمي. المؤمن كيّسُ فطنٌ
يا بُني، يعرف من أين تُؤكل الكتف، وماذا يجب عليه
أن يقول، والأهم أمام من يقوله. فهذا الدين ليس نظرية

فقط، وإنما سلوكك وتطبيقك ومنهج حياة، وربما أضرب
المسلم الدين بحماسة فلم يراعِ المواقف، ولم يحسب
العواقب، وقد كانت فاطمة بنت الخطاب أعقل من أن
تقع في فخ التهور.

- الشيء بالشيء يُذكر يا خليفة رسول الله، فحدثني عن
شيء سمعته من علي بن أبي طالب أنه سأل من حوله: من
أشجع مؤمن آل فرعون أم أبو بكر؟ فسكتوا، فقال: والله
لساعة من أبي بكر خير من ملء الأرض من مؤمن آل فرعون،
ذاك رجل يكتُم إيمانه، وأبو بكر يعلنُ إيمانه!

- رحم الله علياً، ذاك الرجل آمنَ وصدقَ وجاهدَ وغلبَ،
أحببناه في الله، وأحبنا في الله، وما قال هذا إلا لحسن
ظنه بي.

- فما قصة قوله هذا؟

- بينما النبي ﷺ يصلي في حجر إسماعيل، إذ أقبلَ عقبة
بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنقه، وخنقه خنقاً شديداً،
فقمْتُ إليه، فأخذتُ بمنكبيه ودفعته عن النبي ﷺ
وقلتُ: «أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله»؟!!

- فما فعلتَ قريش حينها؟

- التهوا عن النبي ﷺ، وأقبلوا عليَّ يضربونني، ووالله لقد
سرَّني أن يتركوه ويضربوني جعلني الله فداءه.

- والله لقد صدق علي بن أبي طالب لأنَّ خير من مؤمن
آل فرعون.

- غفر الله لك يا بُني، ما أراك إلا تحسنُ الظنَّ بي .
- فإن لم تكن أهلاً لحسنِ الظنِّ، فمن عساه يكون؟
- كُفَّ عن مديحي فأنا أعلمُ بنفسِي .
- يصعبُ على المرء أن يلجم قلبه يا خليفة رسول الله،
وإن قلبي هو الذي يتحدثُ لالساني، ولكن كما تُحبُّ .

سمعتُ يا خليفة رسول الله أنَّ عمر بن الخطاب كان كلما
رأى بلال بن رباح قال: بلال سيدنا وأعتقه سيدنا! يعينك
أنت، فما قصة عتق بلال؟

- كان المسلمون في مكة ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:
الأول: هم الذين من أشراف قريش وأعرقهم نسباً كأبي
حذيفة بن عتبة بن ربيعة وهؤلاء لم يكن يجروء أحد على أن
يقربهم لمكانتهم في قومهم .
الثاني: ضعفاء المسلمين الذين كانوا أحراراً ولكن لم يكن
لهم عائلة قوية تحميهم وتمنعهم، كآل ياسر . فنالت منهم
قريشاً أذىً وإذلاً .

الثالث: العبيد الذين أسلموا رغماً عن أسيادهم، وهؤلاء
كانوا في عرف العرب بضاعة تُباع وتُشتري، وليس للعبد
دين غير دين سيده، ولو قام سيد إلى عبده فذبحه ما راجعه
في هذا أحد، فلم يكن العبد في الجاهلية إنساناً بقدر ما كان
متاعاً، وقد كان بلال بن رباح أحد هؤلاء . فلما أسلم بلال
غضبَ سيده أمية بن خلف غضباً شديداً، وأقسم أن يعذبه

حتى يموت أو يرجع عن دينه! فكان أمية يخرج إلى رمضاء مكة إذا حَمِيت الظهيرة، فيطرحه على ظهره، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى! فيقول: أَحَدٌ، أَحَدٌ.

وكان ورقة بن نوفل يمرُّ عليه وهو يُعَذَّبُ بذلك فيقول: والله أَحَدٌ أَحَدٌ يا بلال، ثم يلتفتُ إلى أمية ومن معه فيقول لهم: والله لئن قتلتموه على هذا لَأَتَّخِذَنَّهُ حَنَاناً، أي لأجعلنَّ قبره موضع حنان فأزوره يوماً مترحماً عليه. وكنتُ أنا أمرُّ ببلال وهو يُعَذَّبُ فيعتصر قلبي ألماً من هول ما أراه، حتى قلتُ يوماً لأمية بن خلف: ألا تتقي الله في هذا المسكين، حتى متى؟

فقال: أنتَ أفسدته فأنقذه مما ترى. فقلتُ: أفعل، عندي غلام أسود، أجلدُ منه وأقوى، وهو على دينك، أبادلك به بلالاً. فقال: قبلتُ.

فأخذتُ بلالاً منه، وقلتُ له أنتَ حرٌّ لوجه الله! - فهل كان بلال بن رباح هو الوحيد الذي أعتقته؟ - أعتقتُ بفضلِ الله سبعةً كانوا يُعَذَّبون في دينهم. - فمن هم؟ - بلال، وعامر بن فهيرة، وأم عُبَيْس، وزِنِيرة، والنهدية وابنتها، وجارية ابن عمرو بن مؤمل.

- فهل من قصة تُروى في عتق هؤلاء؟
- بعضهم كان مجرد صفقة بيع وشراء، ثم يعقبه مَنْ عَتَق لوجه الله، وبعضهم قد كان فيهم قصة.
- فهل يتكرم خليفة رسول الله بإخباري بها؟
- لك هذا يا بُني، فأما زُيْرة الرومية فكانت أمةً لعمر بن الخطاب، أسلمت قبله، فكان يضربها حتى ذهب بصرها، فقالت قريش: ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى.
- فقالت وهي لا تبصر: والله ما هو كذلك، وما تدري اللات والعزى من يعبدها، وربى قادر على أن يردَّ عليَّ بصري.
- فردَّ الله عليها بصرها صبيحة تلك الليلة، فقالت قريش: هذا من سحر محمد.
- وكانت قريش تقول: لو كان هذا الدين خيراً ما سبقتنا إليه زُيْرة، فأنزل الله تعالى قوله ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾
- فلما سمعتُ بخبرها اشتريتها واعتقتها.
- وأما النهديّة وابنتها، فقد كانتا لامرأةٍ من عبد الدار، فمررتُ بهما وقد بعثتهما سيدتهما إلى طحينٍ لها تطحنانه، وهي تقول: والله لا أعتقكما ابداً!
- فقلتُ لها: تحللي من يمينك.
- فقالت: قد تحللتُ، وأنتَ أفسدتهما فأعتقهما.
- فقلتُ لها: بكم؟

فقالت: بكذا وكذا درهم.

فقلتُ: قد أخذتهما وهما حرتان، وقلتُ لهما: أَرَجِعَا إليها طحينها .

فقالتا: حتى نفرغ منه ونرده إليها.

فقلتُ: ذلك لكما إن شئتما.

وأما جارية ابن عمرو بن مؤمل، فكانت مسلمة، وكان حيُّ بني مؤمن من عَدي، وكان عمر بن الخطاب يعذبها لتترك الإسلام وهو يومئذ على الشرك، فيضربها حتى إذا ملَّ منها قال: أعتذرُ إليك، إني لم أتركك إلا مللاً.
فتدعو عليه...

فلما سمعتُ بخبرها، اشتريتها من سيدها وأعتقتها.

- لله أنتَ كم جاهدتَ بنفسك ومالك في سبيل الله.

- يا بُني من علم أنه لله هو، هان عليه في سبيله كل شيء!

- أتدري يا خليفة رسول الله أني أتحرقُ شوقاً أن نصل

في حديثنا إلى يوم الهجرة، ولكن قبلها أتأذن لي أن

أسألك عن موقفين حصلنا معك قبل الهجرة الشريفة؟

- وما هما يا بُني؟

- أريدُ أن تتكرم عليَّ وتحدثني عن رهانك مع أبي بن

خلف، وعن هجرتك التي لم تكتمل إلى الحبشة.

- لك هذا فاسمع.

- كلي آذان صاغية يا خليفة رسول الله، فتفضّل.

- فأما رهاني مع أبي بن خلف فكان ذلك قبل الهجرة
كما ذكرت، ولم يكن الرّهان قد حُرِّمَ بعد في دين
الإسلام، والقصة هي أن الروم وفارس اقتتلتا، فهزمت
فارسُ الروم، فبلغنا ذلك في مكة، فشقَّ ذلك علينا
لأن النبي ﷺ كره أن يظهر المجوس عبدة النار على
أهل الكتاب من الروم، بينما فرح مشركو قريش بنصر
فارس وشمثوا، وكانوا يقولون لنا: إنكم أهل كتاب
والنصارى أهل كتاب. ونحن أميون، وقد ظهر إخواننا
من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب، وإنكم
إن قاتلتمونا لنظهرنَّ عليكم. كما ظهرت فارس على
الروم.

فأنزل الله تعالى قوله ﴿أَلَمْ غَلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ
وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾.
فخرجتُ إلى الكفار فقلتُ: أفرحتم بظهور إخوانكم على
إخواننا، فلا تفرحوا، ولا يقرنَّ الله أعينكم، والله ليظهرنَّ
الروم على فارس، أخبرنا نبينا بذلك.

فقام إليَّ أبي بن خلف الجمعي فقال: كذبت يا أبا فضيل.
فقلتُ: أنت أكذبُ يا عدو الله!

فقال: أراهنك على عشر قلائص مني وعشر قلائص
منك، فإن ظهرت الروم على فارس دفعتها إليك، وإن ظهرت
فارس على الروم دفعتها إليَّ على أن تكون مدة الرهان ثلاث
سنوات.

- وما هي القلائص يا خليفة رسول الله؟
 - القلوص هي الفتية من الإبل.
 - حسناً فهمتُ، فماذا حدث بعد ذلك؟
 - جئتُ إلى النبي ﷺ فأخبرته بالذي كان بيننا من رهان، فقال لي: ما هكذا ذكرتُ لكم، وإنما بضع سنين فهي من الثلاث إلى التسع فزايده في المدة وزد عليه في الرهان. فخرجتُ فلقيتُ أباي، فقال لي: لعلك ندمتَ؟ فقلتُ: لا، ولكن تعال أزيدك في الرهان وفي المدة، فاجعلها مئة قلوص إلى تسع سنين.
 فقال: قد قبلتُ.

فلما خشى أبيُّ بن خلف أن أخرج من مكة مهاجراً إلى المدينة لما تناهى إلى مسامعه أن المسلمين قد بدأوا بالهجرة إليها، جاءني وقال لي: إني أخافُ أن تخرجَ من مكة، فينقضي أجل الرهان ولمّا تدفع لي فأقم لي ضامناً كفيلاً.

- فما الذي حدث بعد ذلك؟
 - خرج أبي بن خلف إلى أحد، ثم رجع إلى مكة وماتَ فيها من أثر جراحه التي جرحه إياها النبي ﷺ حين بارزه يوم أحد.

ثم هزمتُ الرومَ أهلَ فارس يوم الحديبية، وكان ذلك بعد سبع سنوات من رهاننا، فقبضَ ابني عبد الله الرهان من ورثة أبي بن خلف، وجاءني بها، فأخذتها إلى النبي ﷺ، فقال لي: تصدَّق بها.

- أما حدثتك نفسك ولو للحظة أنه من الممكن أن تخسر
الرهان؟

- لا والله ما شككت ولا ارتبت في وعد الله ووعد
رسوله، وكنت على يقين بأني سأفوز بالرهان، وما
كانت تعينني النوق موضوع الرهان، وإنما كنت أراهن
على صدق الله ورسوله.

- لله دَرَكٌ يا أبا بكر.

- فهل انتهينا من هذه القصة؟

- أجل انتهينا، فهل تتكرم وتحدثني الآن عن هجرتك التي
لم تكتمل إلى الحبشة؟

- لك هذا يا بُني.

- كلي آذان صاغية يا خليفة رسول الله.

- لما زادت قريش في أذاها لنا، خرجت مهاجراً إلى
الحبشة أريد أن ألحق بجعفر بن أبي طالب ومن معه هناك،
حتى إذا بلغت برك الغماد وهي منطقة تبعد مسيرة خمس ليالٍ
عن مكة، لقيني هناك ربيعة ابن الدغنة، واسمه ربيعة بن فهيم
من قبيلة القارة والدغنة أمه وكان يُنسب إليها لشهرتها، فقال
لي: أين تريد يا أبا بكر؟

فقلت: أخرجني قومي، فأريد أن أسبح في الأرض وأعبد ربي.

فقال: فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج، إنك تُكسب
المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتُقري الضيف، وتُعين
على نوائب الحق، فأنا لك جارٌّ، ارجع فاعبد ربك في بلدك.

فرجعتُ ورجعَ معي ابن الدَّغنة، فلما صرنا في مكة، طافَ بالبيت، ثم أقبل على سادة قريش في دار الندوة وقال لهم: إِنَّ أبا بكر لا يُخرجُ ولا يُخرجُ، أٌخرجون رجلاً يُكسبُ المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكلَّ، ويُقري الضيف، ويعين على نوائب الحق.

فسكتوا برهةً، لما علموا من صدق وصفه لي، ثم قالوا: مُرْ أبا بكرٍ فليعبُدْ ربَّه في داره فليصلَ فيها، وليقرأ ما شاء، ولا يُؤذينا، فإننا نكره أن يفتن نساءنا وأبناءنا عن دينهم فيتبعوا دينه .

فقال لهم: لكم هذا.

فلبثُ زماناً على هذا، ثم بنيتُ مسجداً في فناء داري، فكنْتُ أصلي فيه، وأقرأ القرآن، فكانت قريش تمرُّ بي فتقف تسمع لصلاتي وقراءتي، فساء ذلك سادة قريش، فجاءوا إلى ابن الدَّغنة وقالوا له: إِنَّا كُنَّا أجربنا أبا بكرٍ بجوارك على أن يعبد ربه في داره، فجاوز ذلك، فبنى مسجداً في فناء داره، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فانهه، فإن أحبَّ أن يقتصر على أن يعبد ربَّه في داره فعل، وإن أبى إلا أن يُعلن، فسله أن يردَّ إليك ذمتك، فإننا نكره أن نردَّ جوارك فيه ولكننا لا نرضى أن يجهر بصلاته وقراءته.

فجاءني ابن الدَّغنة، فقال: يا أبا بكر، قد علمتَ الذي

أجرْتُكَ عليه، فإِما أَن تقتصر على أَن تعبد ربك في بيتك، وإِما أَن تُرجع إِلَيَّ ذمتي، فَإني لا أحبُّ أَن تسمع العربُ أَنه أُصيب رجلٌ وهو في جوارِي، وأنا في غنى عن قتال قريش.

فقلتُ له: فَإني أردُّ إِلَيْك جوارك، وأرضى بجوار الله عز وجل.

- لفتني يا خليفة رسول الله نُبل ابن الدَّغنة.

- أَجل والله، لقد كان رجلاً نبيلاً، وهكذا كانت أخلاق العرب في الجاهلية، فعلى شركهم، كانت فيهم أخلاقٌ حميدة، وهذه أقرَّ لهم بها النبي ﷺ يوم قال: «إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق». فقد أقرَّ أَن للقوم أخلاقاً حميدة، ولكنها أخلاق تعجبُ أحياناً من نبلها ثم يقابلها عادات تعجب من خسستها ووضاعتها، وما بعث الله نبيَّه ﷺ إلا بدين التوحيد، ثم ليُبقي على هذه العادات والقيم النبيلة، ويهدم العادات السيئة، ويقيم مكانها عادات الإسلام وأخلاقه.

- صدقتَ والله.

- فهل اكتفيتَ بما حدثتك به مما طلبتَ؟

- أما عما طلبتُ فقد اكتفيتُ، وأما منك فلا، فما زال للحديث بقية!

- والآن يا خليفة رسول الله أريدُ أن أسألكَ عن شيءٍ غبطك عليه الناس منذ أن حدثَ لكَ حتى قيام الساعة!
- وما هو يا بُني؟
- هجرتك مع النبي ﷺ من مكة إلى المدينة.
- واللهِ لهي أجمل أيام عمري، فعلى ما فيها من مشقة السفر، وخوف أن نُدرِكَ، والقلق على النبي ﷺ وعلى دين الإسلام، إلا أن كل هذا لا شيء مقارنة أن تمشي معه في رحلة غيّرت وجه هذا الكوكب إلى الأبد، ونقلت الإسلام من مشقة الدعوة إلى سعة الدولة، وأن تختلي به في الغار وحدكما ثلاثة أيام لهو أجمل ما في العمر، ويستحق أن أُغبط عليه.
- فحدثني عنها إذاً، فكلي شوق أن أسمع القصة من صاحبها.
- لك هذا يا بُني، فأعزني سمعك.
- أعزُّك قلبي قبل سمعي.
- كنتُ كثيراً ما أستاذنُ النبيَّ ﷺ في الهجرة، فيقول لي: لا تعجل، لعلَّ الله أن يجعلَ لكَ صاحباً. فكنتُ أمثُلُ أمره وأنتظر، وما كنتُ أعلمُ أنه يُخبئني لنفسه!

وكان من عادة النبي ﷺ أن يأتي في بيتي إما صباحاً، أو مساءً، فجاءني يوماً عند منتصف الظهر، فقلتُ: ما جاء رسول الله ﷺ في هذه الساعة إلا لأمر قد حدث. فلما دخل أفسحتُ له ليجلس إلى جوارى على سريري وليس عندي يومها إلا أسماء وعائشة.

فقال لي: أَخْرِجْ عني من عندك.

فقلتُ: يا رسول الله، إنما هما ابتائى، وما ذاك فذاك أبي وأمي؟

- إنه قد أذن لي في الخروج والهجرة.

- الصُّحبة يا رسول الله.

- الصُّحبة يا أبا بكر.

وكان قلبي يُحدِّثني أنه سيصحبني معه، فكنتُ قد أعددتُ ناقتين للسفر، فأخبرته بالأمر، وقلتُ له: خُذْ إحدى الراحلتين.

فقال لي: بالثمن يا أبا بكر.

فقلتُ له: كما تشاء يا رسول الله.

- فلماذا أصرَّ على أن يدفع ثمن الناقة لك، مع أنه لم يكن

بينكما حساب. وهو القائل: إن أَمَنَ الناسَ عليَّ بصحبته

وماله أبو بكر؟

- هذا لتكون هجرته إلى الله بنفسه وماله، ولهذا لم أُحَـ

عليه فقد فهمتُ مغزاه.

- حسناً، فما الذي حدث بعدها؟

- رسمنا خطة الهجرة، وهي أن نخرج مشياً على الأقدام

إلى غار ثور، ونمكث هناك ثلاثة أيام، فقد علمنا أن

قريشاً لا بُدَّ أن تخرج في طلبنا، فإذا اختبأنا هناك، ما تلبث قريش أن تعتقد أننا سبقناهم فتكفَّ عن طلبنا. وكنا قد استأجرنا رجلاً عالماً بالصحراء داهية، اسمه عبد الله بن أريقط ليكون دليلنا إلى المدينة، ويختار لنا طريقاً لا يسلكه الناس عادة، واتفقنا أن يأتينا عند الغار مع خادمي عامر بن فهيرة والنوق التي سنركب عليها، فإذا أتمَّ الله لنا هذا، انطلقنا برعاية الله إلى المدينة.

وأوصى النبي ﷺ عليَّ بن أبي طالب، أن يبيت في فراشه تلك الليلة حتى تطمئن قريش أنه في بيته، وأوصاه أن يردَّ الأمانات إلى أصحابها، فلم يكن عند أحد من قريش شيء يخشى عليه إلا وضعه عند النبي ﷺ لما يعلمون من صدقه وأمانته.

وخرجنا ولا يعلم بمكاننا من الناس إلا علي بن أبي طالب، وأهل بيتي. وعبد الله بن أريقط، وخادمي عامر بن فهيرة، ولَمَّا كنا على مشارف مكة، وقف النبي ﷺ مودعاً لها والحزن يعتصر قلبه وقال: إنك لأحبُّ أرضِ الله إليَّ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجتُ.

ونحن في الطريق إلى غار ثور كنتُ أسيرُ مرةً أمامه ومرةً ورائه، فقال لي: ما هذا يا أبا بكر؟
فقلتُ: يا رسول الله أذكرُ الرِّصد فأكون أمامك، وأذكرُ الطَّلَب فأكون ورائك، فإني أخشى عليك.

فلما وصلنا إلى غار ثور دخلنا فاختبأنا، وفقدتنا قريش في مكة، وجاء أبو جهل إلى بيتي يسأل ابنتي أسماء عني وقال لها: أين أبوك؟

فقلت: ما أدري أين أبي.

فرفع يده فلطمها على وجهها لكمة قوية سقط منها القرط الذي تضعه في أذنها!

- لكم الله يا آل أبي بكر كم تحملتم في سبيل الله.

- بل الحمد لله والمنة أن اختارنا من دون الناس لنكون جنوداً في هذه الهجرة المباركة

- فما الذي حدث بعد ذلك؟

- تبعنا قريش آثارنا حتى وصلوا إلى جبل ثور، فاختلط

عليهم الأمر، فصعدوا الجبل، ومروا بالغار، فرأوا على

بابه نسيج العنكبوت، فقالوا: لو دخل هنا أحد لم يكن

نسيج العنكبوت على بابه.

وأنا في الداخل أخشى على النبي ﷺ، وقلت له: يا رسول

الله لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا.

فقال لي: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما.

فأنزل الله تعالى عليه قرآناً ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ،

إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ

لصاحبه لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ

بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ

هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

- يا لحظّك يا أبا بكر، يطمئنك بصوته العذب، ويربّتُ على قلبك بأجمل ما قيل في الطمأنينة في تاريخ البشرية، يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما. ويا لحظّك إذ ينزلُ فيك قرآن يُتلى إلى يوم القيامة ويشهدُ أنك كنتَ صاحبه.

- هذا فضل الله يؤتيه من يشاء، والحمد لله على فضله الذي آتانا.

- فهل كنتم تعلمون شيئاً من أخبار قريش وأنتما في الغار قبل أن يصل إليكما بقية فريق الهجرة المباركة لإكمال الرحلة؟

- كنا نعرف كل أخبارهم.

- وكيف هذا؟

- أخبرْتُك أننا أعددنا للأمر خطة محكمة وكان من بنود الخطة أن يبقى ابني عبد الله في مكة نهراً يستطلع أخبار قريش، ويعرف ما هم فاعلون من أمرهم، وماذا يقولون ويدّبرون، فإذا كان الليل انسَلَّ إلينا في الغار وأخبرنا بخبر القوم، وكان يبقى ساهراً عند باب الغار يحرسنا فإذا كان الصباح عاد إلى مكة. فرآه القوم هناك في النهار فلم يشكوا للحظة أنه بات في بيته.

- هي والله خطة محكمة، ولكن ألم يخطر ببالكما أن قريشاً قد تتبع الأثر إلى غار ثور مرة أخرى؟
- على يقيننا أن قريشاً ما كانت تعود، إلا أننا احتطنا للأمر.

- وكيف هذا؟

- عهدتُ إلى خادمي عامر بن فهيرة أن يرعى أغنامي مع رعيان قريش حتى يبدو الأمر طبيعياً، ولا يلفت الأنظار إلى شيء، حتى إذا أمسى جاء بالأغنام إلى غار ثور، فحلبَ وسقانا، ثم يرجع بالقطيع فيمشي به على آثار ابني عبد الله وهكذا تضيع أثر خطوته حيث تمحوها الأغنام!

- يا للدهاء يا أبا بكر!

يا بُنَيَّ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ علمنا أن نأخذ بالأسباب ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، ثم نتوكل على الله وحده لا على الأسباب التي أخذنا بها، ألم تر أنه قد استأجر عبد الله بن أريقط ليكون لنا دليلاً، ولم يقل أنا نبي ولن يتركني الله أضيع في الصحراء وسأصل إلى المدينة على أية حال، والله ما كان الله ليضيعه، وكان سيصل إلى المدينة نهاية المطاف، ولكنه أراد أن يُعَلِّمَ أمته ثقافة الأخذ بالأسباب!

- ﷺ كم كان يحرص على تعليم هذه الأمة حتى في أشد لحظات حياته خطراً ومشقة.

- أي والله لقد كان كذلك.

- عندي سؤال يا خليفة رسول الله.

- تفصّل يا بُنَيَّ.

- أخبرتني أن أباك قد تأخر إسلامه حتى عام الفتح، فهل كان له من خبر يوم الهجرة؟

- عندما علم أبي بخبر هجرتنا، جاء إلى بيتي يتفقد أولادي، وكان قد عمي وفقد بصره، فقال لأهلي: والله إنني لأراه قد فجعكم في نفسه وماله. وبالفعل كنتُ قد أخذتُ كل ما تبقى من مالي معي خشية أن يلزمنا في الطريق. ولكن ابنتي أسماء كانت ذكية عاقلة حصيفة، فجاءت بصندوق في أسفله حصى وعلى وجهه بعض الحلي لها ولأختها ولأمها، ووضعت فوقها قطعة قماش، وقالت له: لا يا جدي، لقد ترك ماله، ضع يدك. فوضع أبي يده، وتحسس ما في الصندوق، فلم يشك أن مالي كله فيه.

- عائلة من الدهاة يا أبا بكر، ذرية بعضها من بعض، فسبحان من علمكم.

- سبحانه وتعالى.

- فما الذي حدث بعد ذلك؟

- بعد أن أمضينا في غار ثور ثلاثة أيام، وهدأت الحركة، وخفَّ الطلب، ويئست قريش من إيجادنا، حتى أنها من شدة يئسها جعلت جائزة مئة ناقة لمن يأتي بنا إليها أحياءً أو أمواتاً، جاءنا دليلنا الحاذق عبد الله بن أريقط، وخادمتنا الأمين عامر بن فهيرة، وانطلقنا في مسيرنا تحفُّنا رحمة الله، وتكلُّنا عنايته حتى وصلنا إلى المدينة.

- قبل أن أسألك عن شهر الوصول إلى المدينة، هل تأذن لي أن أسألك عن مروركم على أم معبد الخزاعية، وعلى ما كان بينكم وبين سُراقَة بن مالك؟

- سَلْ ما شئتَ يا بُني!

- فإني قد سألتُ، فحدّثني يرحمك الله، فالحكاية بصوتك نكهة أخرى، وطعم خاص.

- في طريقنا إلى المدينة مررنا على خيمة أم معبد الخزاعية، وكانت امرأة جوادة عفيفة، تُحسن إلى الضيف، وتعين المسافر، فسألناها عن لحمٍ وتمرٍ نشتريه منها، فلم نجد عندها من ذلك الشيء، فقد كانوا يومها في فاقة وجذب، وكان زوجها قد خرج بأغنামه إلى البادية ليرعاها. فنظر النبي ﷺ إلى شاة واقفة بجانب الخيمة، ثم قال لها: ما هذه الشاة يا أم معبد؟

فقالت: شاة لا تستطيع المشي، وقد تركها أبو معبد هنا ولم يأخذها مع الغنم للرعي.

فقال لها: أتأذنين أن أحلبها؟

فقالت: بأبي أنت وأمي إن رأيتَ بها حلباً فاحلبها.

فدعا بها النبي ﷺ، فقربناها له، فسمى الله، ثم مسح على ضرعها بيده الشريفة، وحلبها حتى ملأ إناءً كبيراً وسط ذهول أم معبد لما رأت كيف تحولت هذه الشاة التي جفَّ ضرعها بالأمس إلى شاة حلوب بين يديه. ثم قام فسقى أم معبد حتى شبعَتْ، ثم سقانا حتى شبعنا نحن أيضاً، ثم كان هو آخر القوم شرباً.

ثم قام إلى الشاة مرةً أخرى فملاً الإناء من حليبها، وناوله لأم معبد ليشربه زوجها وأهلها بعد عودتهم من الرعي ثم تابعنا طريقنا.

- شاة جذباء صارت شاةً حلوباً يا لبركة يد رسول الله!
- كان والله مباركاً قبل نبوته فكيف بعدها، كانت أغنام حليلة السعدية أهزل أغنام بني سعد، فلما جاءت إلى مكة وأخذته لترضعه في ديارها حلت البركة هناك يوم حل، فصارت أغنامها أسمّنها لحماً، وأكثرها حلياً، حتى صار الناس يقولون: انظروا أين ترعى أغنام حليلة فارعوا أغنامكم!
- والله إنه لبركة بأبي هو وأمي.

- والآن بعد أن انتهينا من قصة أم معبد الخزاعية، فما قصة سراقه بن مالك يا خليفة رسول الله؟
أخبرتكم أن قريشاً جعلت جائزة مئة ناقة لمن يأتي بنا إليها أحياءً أو أمواتاً، وكان سراقه بن مالك قصاصاً بارعاً للأثر، وكان جالساً في مجلس قريش حين جاء رجل فقال: لقد مرّ جماعة في الصحراء وما أظنهم إلا محمداً وأصحابه.

فأشار إليه سراقه أن أسكت، ثم قال: إنهم بنو فلان يتبعون ضالة لهم.

وهو بذلك يُمنّي نفسه بالجائزة أن يستأثر بها وحده، فقد وقع في قلبه أننا نحن الذين رأنا الرجل، ثم قام إلى بيته فجهّز فرسه، وأخذ سلاحه، وتبع أثرنا، فلما رأنا من بعيد ورأيناه وهو يطلبنا، إذ سقط عن فرسه ونحن نشد المسير كي لا يتبعنا، فقام وامتطى فرسه فوق مرة ثانية، فعرف أن النبي ﷺ محروس بعين الله وأنه لن يصل إليه فنادانا قائلاً: أنا سُراقَة بن مالك انتظروني أكلمكم فوالله لا أريكم ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه.

فقال لي النبي ﷺ: يا أبا بكر قل له كيف أنت يا سُراقَة بن مالك إذا أخفيت أمرنا فلبست سوارى كسرى؟

فقال: كسرى بن هرمز؟!

فقلت: نعم كسرى بن هرمز.

فقال: قبلتُ، على أن تكتب لي كتاباً يكون آية بيني وبينكم.

فقال النبي ﷺ: يا أبا بكر، أكتب له كتاباً.

فكتبْتُ له رقعة هذا الوعد، وأعطيته إياه ومضيّنا...

وقد تحقق وعد رسول الله ﷺ يا أبا بكر لسُراقَة، ففي خلافة عمر بن الخطاب فُتحت بلاد فارس، وجيء إلى عمر بكنوز كسرى، وجاء سُراقَة بن مالك بالرقعة إلى عمر بن الخطاب ودفعها إليه. فألبسه عمر سوارى كسرى وملابسه، ثم أخذها منه وردّها إلى الغنائم لتقسم بين المسلمين، فالوعد كان أن يلبسها لا أن يستأثر بها لنفسه.

- ولكن عندي سؤال يا خليفة رسول الله.
- وما هو يا بُني؟
- هل كان رسول الله ﷺ يعلم الغيب؟
- لا يعلم الغيب إلا الله يا بُني، ولكن الله تعالى قد أطلع نبيه على شيء منه. فكان يعلم ما أطلعه الله عليه فقط، أما خبر النبي ﷺ أن من علامات الساعة أن الحُفَاة، رعاة الشاة سيتناولون في البنيان وهذا من أمور الغيب، وها هو الأمر كما ترى قد تحقق، وما ينطقُ نبينا عن هوى، إنما هو وحي يوحى.
- حسناً فهمتُ، فأخبرني عن لحظة الوصول إلى المدينة، وكيف استقبلكم الناس؟
- كان خبر انطلاقنا من مكة قد وصل إلى المدينة قبل وصولنا، وكان المسلمون ينتظروننا على أحر من الجمر، فلما وصلنا فرحوا فرحاً عظيماً، ورحبوا بنا، وجلس النبي ﷺ صامتاً لم يتكلم، وكنتُ أنا واقفاً، فجاء رجال من الأنصار ممن لم يروا النبي ﷺ من قبل يُحيونني لأنهم ظنوني هو، فأمسكتُ ردائي وظللتُ النبي ﷺ من الشمس، فعرفوا أنه هو.
- فلمَ فعلتَ هذا؟
- يا بُني فعلته جبراً للخواطر، فقد وجدتُ فيها حرجاً لهم أن يحيونني فأقول لهم لستُ أنا، فلما فعلتُ هذا، عرفوا من فعلي، وفهموا أن الذي أظله هو النبي ﷺ.

- ما أعذبك، حتى في هذا الموقف لم تنسَ خواطر الناس .

- يا بُني ما الناس إلا خواطر وكرامات، وكسر عظم إنسان لا يقل ألماً عن كسر خاطره، وإن كسر العظم يلتئم، أما كسر الخاطر فيبقى !

- فماذا عن نشيد طلع البدر علينا، لماذا لم تذكره لي ؟
- يا بُني إن نشيد طلع البدر علينا لم يكن يوم قدومنا إلى المدينة، وإنما أنشده أهل المدينة للنبي ﷺ يوم عاد فاتحاً من غزوة خيبر !

- سبحان الله، لهذا حرصتُ أن أسمع الحكاية من فم صاحبها. فحدثني يا خليفة رسول الله عن خبر سمعته عن مرضك يوم قدمت إلى المدينة ؟

- كانت المدينة شديدة الوباء، فأصاب أصحاب رسول الله ﷺ منه شيء، ودفعَ الله ذلك عن نبيه، فكنْتُ أنا وبلال وعامر بن فهيرة مرضى في بيت واحد، فاستأذنت ابنتي عائشة زوجها رسول الله ﷺ أن تأتي لزيارتنا فأذن لها، ولما دخلت عليَّ قالت لي: كيف تجددك يا أبتِ فقلتُ لها شعراً:

كل امرئٍ مُصَبَّحٌ في أهله
والموتُ أدنى من شركِ نعله

فقلت لي: والله إنك لا تدري ما تقول يا أبتِ من شدة الحمى التي نزلت بك !

ثم سألت بلالاً وعامراً فأجابها قريباً مما أجبتهما، فرجعت عائشة إلى النبي ﷺ فأخبرته الذي كان منا، وقالت: يا رسول الله إنهم يهزون من شدة الحمى.

فقال: اللهم حَبِّبْ إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، وصحَّحها، وبارك لنا في صاعها ومُدَّها، وانقل حمَّها فاجعلها في الجُحفة.

- وما الجُحفة يا خليفة رسول الله؟

- مكان قريب من المدينة، وقد سمَّاها النبي ﷺ إذ كانت يومذاك ديار اليهود!

- فماذا عن غزوة بدر يا خليفة رسول الله؟
- كانت قريش قد صادرت أموال المسلمين في مكة،
وبلغ النبي ﷺ أن قافلة لقريش يقودها أبو سفيان على
مقربة من المدينة، فالتدبنا النبي ﷺ للإغارة عليها علّه
يُعوّض المسلمين شيئاً مما فقدوه في مكة، فبلغ الخبرُ
أبا سفيان فغيّر سير القافلة، وأرسل رسولاً إلى قريش
يطلب نجدها، وخرجت قريش بجيشها، خرجنا نريد
القافلة فلم ندركها، وخرجت قريش تريدُ الدفاع عن
القافلة ولكنها نجت منا دون حاجتها لنصرة قريش،
أرادوا شيئاً وأردنا شيئاً ولكن الله سبحانه أراد الحرب
فكانت !

- فما الذي حدث قبل المعركة، أقصد كيف كانت الأجواء
في معسكر المسلمين؟

- جمعنا النبي ﷺ وقال: أشيروا عليّ أيها الناس .
فقمتُ وتحدّثتُ وأخبرته أن يمضي على بركة الله فكلنا
معه وطوع أمره.

فقال مجدداً: أشيروا عليّ أيها الناس .

فقام عمر بن الخطاب وقال نحواً مما قلتُ.
ولكنَّ النبيَّ ﷺ قال مجدداً: أشيروا عليَّ أيها الناس.
- فلماذا كان يريدُ مزيداً من المشورة بعد قولك وقول
عمر؟

- كان يريدُ أن يسمع قول الأنصار لسبيين:
الأول: أَنِّي وعمر من المهاجرين فكان لا يريدُ أن يُشركهم
في حرب لا يخوضوها عن رغبة منهم.
الثاني: أَنهم عاهدوا النبيَّ ﷺ أن يحموه ما دام في المدينة،
أما الآن فنحن خارج المدينة، عند آبار بدر، وهذا موقف
جديد والنصرة والمنعة هنا لا تدخل ضمن العهد القديم الذي
أعطوه للنبي ﷺ.

- حسناً فهمتُ، فما الذي حدث بعد ذلك؟
- فطَنَ سعد بن معاذ زعيم الأنصار لمقصد النبي ﷺ،
وكان رجلاً ذكياً شجاعاً، فقال: كأنك تريدنا يا رسول
الله؟

فقال له النبي ﷺ: نعم
فقال له: قد آمنَّا بك، وصدقناك، وشهدنا أن ما جئتَ به
هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع
والطاعة، فامضِ يا رسول الله لما أردتَ فوالذي بعثك بالحق
لو خضتَ بنا البحر لخصناهُ معك، وما تخلفَ منا رجل
واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدواً غداً، إنا لصبرٌ في الحرب،
صُدُقٌ عند اللقاء، ولعلَّ الله يريك منا ما تقرَّ عينك، فسيرَ بنا

بركة الله. عندها تهلّل وجه النبي ﷺ، واطمأنّ على تماسك جيشه، وارتفاع الروح المعنوية لجنوده.

- فهل دعا النبي ﷺ بشيء يوم المعركة؟

- كان النبي ﷺ أكثر هذه الأمة دعاءً ومناجاة، ولم يكن

ليدعو في الرخاء ويتركه في الشدة، وها نحن الآن قاب

قوسين أو أدنى من بدء القتال، فاستقبل النبي ﷺ القبلة،

ثم رفع يديه يدعو فقال: اللهم أنجز لي ما وعدتني،

اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلن تُعبد

في الأرض أبداً.

وما زال يدعو حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأخذت رداءه

فأعدته عليه وقلت له: يا نبيّ الله، كفاك مناشدتك ربّك، وإنه

سينجز لك ما وعدك. حسبك يا رسول الله، قد ألححت على

ربك.

- فما خبر العريش يوم بدر يا خليفة رسول الله؟

- كان هذا اقتراحاً ذكياً من سعد بن معاذ، حيث قال للنبي

ﷺ: يا رسول الله، بنيت لك عريشاً من نخل فتكون فيه،

ثم نلقى عدونا فإن نصرنا الله عليهم كان ذلك مما

أحببنا، وإن كان غير ذلك، لحقت بمن وراءنا من قومنا،

فقد تخلف عنك أقوام ما نحن بأشدّ حباً لك منهم،

ولو ظنوا أنك ستحارب ما تخلفوا عنك، يمنعك الله

بهم، ويناصحونك ويجاهدون معك.

- يا لسعد بن معاذ من رجل، ويا لهذا الاقتراح ما أذكاه!
- يا بُني هذا رجل نذر نفسه لله، ويكفيه شرفاً أن عرش الرحمن اهتز لموته!
- فهل وافق النبي ﷺ على الخطة؟
- أجل، وافق عليها.
- إذاً الخبر الذي سمعته صحيح؟
- وما سمعتَ يا بُني؟
- سمعتُ أن عليّ بن أبي طالب قال يوماً للناس: من أشجعُ الناس؟
- فقالوا: أنتَ.

فقال: أما إني ما بارزتُ أحداً إلا انتصفتُ منه، ولكنَّ أشجعُ الناس أبو بكر، فلما كان يوم بدر جعلنا للنبي ﷺ عريشاً، وقلنا: من يكون معه لئلا يصل إليه أحد من المشركين؟ فوالله ما قام أحدٌ إلا أبو بكر شاهراً سيفه، مستعداً للدفاع عن النبي ﷺ.

- هذا من حُسن ظن عليّ بنا، ودمائة أخلاقه، فأسأل الله أن يكتب له أجر إسلامه وجهاده، فطالما كان أسداً من أسود الإسلام.

- فهل قال النبي ﷺ لك شيئاً وأنتما في العريش؟
- أجل قال لي: أبشرياً أبا بكر قد أتاكَ نصر الله، هذا جبريل أخذ بعنان فرسه يقوده.

ثم خرج من العريش فحرّض المسلمين على القتال وقال:
والذي نفسي بيده لا يقاتلهم اليوم رجلٌ، فيُقتل صابراً محتسباً،
مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة.
فقاتلنا على بركة الله ومعيته، ومنّ علينا سبحانه بالنصر.

- فما خبر أسرى بدر يا خليفة رسول الله؟
- قتلنا يوم بدر سبعين من جيش قريش، وأسّرنا منهم
سبعين أيضاً، ولم يكن عند النبي ﷺ نصٌّ في الأسرى،
ولا وحي من ربه، وكان من عادته والأمر كذلك أن
يجمع المسلمين للشورى، فجمعنا وطلب رأينا، فقمْتُ
فقلتُ: يا نبيّ الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان،
وإنني أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذنا منهم
قوةً لنا، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عضداً.

- فماذا قال لك رسول الله ﷺ؟
- لم يقل لي شيئاً، وإنما قال لعمر: ما ترى يا ابن
الخطاب؟

فقال عمر: لا والله ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى
أن تمكّنتني من فلان قريبي فاقتله، وتمكن حمزة من فلانٍ قريبه
فيقتله، حتى يعلم الناس أنه ليس في قلوبنا هودة للكفار.
هؤلاء صناديدهم وقادتهم وأئمتهم.

- فماذا قال النبي ﷺ لعمر؟
- أيضاً لم يقل شيئاً، وإنما قام فدخل خيمته.

- فما الذي حدث بعد ذلك؟
- صار بعض الناس يقولون سيأخذ النبي ﷺ برأي أبي بكر، وبعضهم يقولون سيأخذ برأي عمر.
- فبرأي مَنْ أخذ؟
- خرج النبي ﷺ من خيمته وقال: «إِنَّ اللَّهَ لَيَكِلِينَ قُلُوبَ رَجَالٍ فِيهِ حَتَّى تَكُونَ أَلْيَنُ مِنَ اللَّبَنِ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيَشْدُدُّ قُلُوبَ رَجَالٍ فِيهِ حَتَّى تَكُونَ أَشَدَّ مِنَ الْحِجَارَةِ. وَإِنْ مِثْلُكَ يَا أَبَا بَكْرٍ مِثْلُ إِبْرَاهِيمَ حِينَ قَالَ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ».
- ومِثْلُكَ يَا أَبَا بَكْرٍ مِثْلُ عِيسَى حِينَ قَالَ: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.
- ومِثْلُكَ يَا عُمَرُ مِثْلُ نُوحٍ حِينَ قَالَ: «رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا».
- مِثْلُكَ يَا عُمَرُ مِثْلُ مُوسَى حِينَ قَالَ: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.
- ثم أخذ برأيي، ووافق على إطلاق الأسرى مقابل فدية، ثم تبين في اليوم التالي أن الحق كان في رأي عمر، فقد أنزل الله تعالى قوله ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَتُخَنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.
- ما يضرك يا خليفة رسول الله، فقد اجتهدت برأيك،

ونصحتَ لله ورسوله، وما كان رأي العفو منك إلا
لأنك لئن رقيق وقد شبَّهك النبي ﷺ في لينك وشفقتك
بإبراهيم عليه السلام، وبعيسى عليه السلام.
- غفر الله لنا ما كان منا يا بُني.

- وماذا عن غزوة أُحُد يا خليفة رسول الله؟
- أرادت قريش أن تثار لما أصابها في بدر، وتنتقم لتلك
الهزيمة النكراء التي ألحقناها بهم، فقد قُتل في بدر
قادة قريش وأسيادها، أبو جهل، وعتبة بن ربيعة، وأمّية
بن خلف، وهؤلاء كانوا من رؤوس الشرك، ولهم من
خلفهم أهل وطالبو ثأر. فجمعوا عتادهم وجاؤوا، وكان
النبي ﷺ يميل إلى رأي الشيوخ أن لا يخرج لملاقاتهم
وإنما يمكث في المدينة فإن جاؤوا قاتلهم، ولكن
حماسة الشباب، وبعض الذين لم يشهدوا بدرًا ألحوا
عليه بالخروج، فدخل بيته ولبس ثياب الحرب ثم
خرج، فقالوا يا رسول الله لعنا حملناك على غير ما
تريد.

فقال: ما كان لنبي إذا لبس لأمة الحرب أن يخلعها!
وهكذا خرجنا إلى أُحُد لملاقاة جيش قريش.

وخشي النبي ﷺ أن يلتف علينا المشركون من وراء الجبل
فنصبح بين فكي كماشة، جيش قريش الذين يقاتلوننا وجهاً
لوجه، وأولئك الذين من الممكن أن يلتفوا علينا، فوضع

سبعين من أمهر رمانا على الجبل وقال لهم: لا تبرحوا
أماكنكم، إذا رأيتمونا نتصر فلا تشاركونا، وإذا رأيتمونا نُهزم
فلا تنصرونا.

وبدأت المعركة، وأبلىنا بلاءً حسناً، وكانت هند بنت عتبة
قد وعدت وحشي بن حرب إن قتل حمزة بن عبد المطلب
الذي قتل أباهما يوم بدر أن تعتقه، وكان حمزة يومها كما هو
دائماً أسد الله وأسد رسوله، قتل وحده ثلاثين من جيش
قريش، وبينما حمزة يصرع الفرسان واحداً تلو آخر باغته
وحشي بالحربة من بعيد فاستشهد، فقال المسلمون: استشهد
حمزة فلتأثر له. فهجمنا على جيش قريش بشراسة أشد من
الأولى ففروا أمامنا، ولكن الرماة على الجبل لما رأوا هذا
المشهد تركوا أماكنهم، وخالفوا وصية النبي ﷺ لهم، عندها
اغتنم خالد بن الوليد هذه الفرصة، والتفّ علينا بفرسانه الذين
كان يقودهم، فلما رأى مقاتلو قريش الفارين هذا المشهد
عادوا أدراجهم، ووقع ما كان النبي ﷺ يخشاه، صرنا في
الوسط فريق من جيش قريش يقاتلنا من الأمام، وخالد ومن
معه يقاتلوننا من الخلف، فسقط منا سبعون شهيداً وأُشيع
وقتها أن النبي ﷺ قد قُتل، فقال أنس بن النضر لرجال قد
ألقوا أسلحتهم: ما تصنعون؟
فقالوا له: قُتل رسول الله!

فقال لهم: فماذا تصنعون بالحياة بعد رسول الله، قوموا فموتوا على ما مات عليه.

شُجَّ يومها رأس النبي ﷺ، وكُسرت مقدمة أسنانه، وأول من رآه حياً يومها كعب بن مالك، فنادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله ﷺ حيُّ يُقاتل.

عندها تجمعنا خلف رسول الله ﷺ، وبدأنا ننسحبُ تدريجياً حتى صعدنا الجبل ليصعب على قريش أن تتبعنا. - فما الذي حدث بعد ذلك؟

- تأخرت قريش عند سفح الجبل، غير أن أبي بن خلف تبعنا وهو يقول: أين محمد؟ لا نجوتُ إن نجا! فقلنا يا رسول الله: أينزلُ إليه أحد منا؟ فقال: دعوه.

ثم تناول الحربة من أنس بن الصُّمَّة، فرماه بها فأصابه في رقبتَه وألقاه عن فرسه!

- أليس أبي بن خلف الذي راهته على نصر الروم على فارس مقابل مئة ناقة؟ - بلى، هو بعينه.

- فهل مات من أثر هذه الضربة؟ - لم يمت مباشرة، وإنما مات من أثر جرحه وهم في طريق عودتهم إلى مكة، وتحقق وعد رسول الله ﷺ فيه.

- أي وعد؟

- كان أبي بن خلف يلقي النبي ﷺ في مكة فيقول:

يا محمد إني أعلفُ فرسي كل يوم مكيالاً من ذرة،
وسأقتلك عليه.

فيقول له النبي ﷺ: بل أنا أقتلك إن شاء الله.

ولم يقتل النبي ﷺ رجلاً بيده غيره، وكان كثيراً ما يقول:
أشقى الناس من قتل نبياً أو قتله نبياً!

- فهل تقدّم إليكم من قريش أحد بعد أبي بن خلف؟

- أجل يا بُني تقدّم أبو سفيان حتى إذا وقف في مكان يرانا

ونراه قال: أفيكم محمد؟

فقال النبي ﷺ: لا تجيبوه.

ثم قال: أفيكم ابن أبي قحافة، يقصدني أنا؟

فقال النبي ﷺ: لا تجيبوه.

ثم قال: أفيكم عمر بن الخطاب؟

فقال النبي ﷺ: لا تجيبوه.

فالتفت إلى جيش قريش وقال: أما هؤلاء فقد قُتلوا، ولو
كانوا أحياءً لأجابوا.

فلم يتمالك عمر بن الخطاب نفسه، فقال: كذبت يا عدو
الله، فقد أبقي الله لك ما يُخزيك.

فقال أبو سفيان: الحرب سجال، يومٌ بيوم بدر.

فقال النبي ﷺ: أجيئوه فقولوا: ليسوا سواءً قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار.

فقال أبو سفيان: اعلُ هُبَل.

فقال النبي ﷺ: أجيئوه فقولوا: الله أعلى وأجلُّ.

فقال أبو سفيان: العُزى لنا ولا عُزى لكم.

فقال النبي ﷺ: أجيئوه فقولوا: الله مولانا ولا مولى لكم.

ثم رجعت قريش إلى مكة، ونزلنا فدفنا شهداءنا.

- وماذا عن فتح مكة يا خليفة رسول الله؟
- يا بُني لا يمكننا الحديث عن فتح مكة قبل المرور على صلح الحديبية، فقد كان ذاك الصلح هو بوابة الدخول إلى مكة.
- فحدثني إذاً.
- لك هذا إن شاء الله، رأى النبي ﷺ في منامه أنه دخل إلى مكة مع أصحابه، فبشرنا بذلك، وفرحنا فرحاً شديداً، وخرج بنا محرمين نريدُ العمرة ولا نسعى إلى قتال. ولكن قريشاً عزمَتْ أمرها على أن تمنعنا من دخول مكة، فعسكرنا بالحديبية، وجرتُ بيننا وبين قريش مفاوضات طويلة، ثم تمَّ الصلح بيننا وبينهم عندما أرسلت قريش سهيل بن عمرو.
- فما هي بنود صلح الحديبية يا خليفة رسول الله؟
- كانت بنود الصلح أربعة:
- الأول: أن نرجع عن مكة هذا العام ثم نرجع إليها للعمرة العام القادم.
- الثاني: أن تضع الحرب أوزارها مدة طويلة هي عشر سنوات.

الثالث: من أراد من العرب أن يدخل في حلف المسلمين دخل معهم، ومن أراد أن يدخل في حلف قريش دخل معهم، ويصبح ذلك الفرد أو القبيلة التي دخلت مع أي من الفريقين جزءاً من الفريق الذي دخلت فيه وأي اعتداء يتعرض له يُعتبر اعتداءً على الفريق كله.

الرابع: من جاء من قريش إلينا مسلماً رددناه إليهم، أما من جاء من المسلمين إلى قريش لم ترده إلينا.

- أليس في بعض هذه البنود اجحافاً لكم يا خليفة رسول الله؟

- هكذا رآها أغلب المسلمين ممن شهدوا الصلح، ولكني كنتُ أعلم أن الرجل نبي، وأنه مأمور من ربه، وأن الله تعالى لن يضيعه، وجرى بيني وبين عمر بن الخطاب يومها حوار طويل حول الأمر، حيث كان عمر يرى بنود الصلح اجحافاً. فقلت له: يا عمر إن الرجل لنبي فالزم غرضه.

- ما أحسن اتباعك وتسليمك يا أبا بكر، ولكني لم أفهم ما علاقة صلح الحديبية بفتح مكة؟

- سأخبرك يا بُني، قلتُ لك أن البند الثالث من صلح الحديبية كان يقضي أنه من أراد من قبائل العرب أن يدخل في حلفنا دخل فيه، ومن أراد أن يدخل في حلف قريش دخل فيه، وأنه بمجرد دخوله يصبح جزءاً

من الفريق الذي دخل فيه، وأي اعتداء عليه يُعتبر اعتداءً
على الفريق كله، أليس كذلك؟

- بلى، لقد أخبرني بهذا.

- حسناً إذاً، لقد دخلت قبيلة بكر في حلف قريش، ودخلت
قبيلة خزاعة في حلفنا، واستمرت بنود المعاهدة سارية
ثمانية عشر شهراً، ثم إنَّ بكرًا هجمت على خزاعة ليلاً،
وكانت قد أخذت بعض السلاح والرجال من قريش
معتقدين أن الوقت ليل ولن ينكشف أمرهم، وعلى
أية حال كان هجوم بني بكر وحده كافياً ليكون خرقاً
للمعاهدة، فكيف وقد شاركت قريش فيه.

- هذا صحيح، فما الذي حدث بعد ذلك؟

- جاء عمرو بن سالم سيد خزاعة إلى المدينة، فسَلَّمَ على
النبي ﷺ ثم أنشده شعراً قائلاً:

اللهم إني ناشدُ محمداً

حلفَ أئينا وأبيه الأتلدا

فانصُرْ هداك الله نصراً أعتدا

وادعُ عبادَ الله يأتوا مددا

فقال له النبي ﷺ: نُصرتَ يا عمرو بن سالم.

فجهز جيشاً قوامه عشرة آلاف مقاتل، ودعا حلفاءه من
خزاعة والعرب، ودخل مكة فاتحاً، وصعد بلال على ظهر
الكعبة معلناً أن الله أكبر، وأن مكة ستبقى عاصمة التوحيد
حتى قيام الساعة.

- والآن قبل الحديث عن تَوَلَّيكَ الخلافة، هل تأذن لي يا خليفة رسول الله أن أسألك عن أشياء حدثت معك في المدينة في حياة النبي ﷺ؟
- تفضّل يا بُني، سلّ عما بدا لك.

- ما قصة قول النبي ﷺ لك أن أبواب الجنة كلها تُناديك؟
قال رسول الله ﷺ يوماً: من أنفقَ زوجين في الإسلام في سبيل اللهِ نوْدِيَ من أبواب الجنة، يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دُعِيَ من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دُعِيَ من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دُعِيَ من باب الريّان، ومن كان من أهل الصّدقة دُعِيَ من باب الصدقة.

فقلتُ: يا رسول الله، هل يُدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟

فقال: نعم، وأرجو أن تكون منهم.
- يا لها من بُشرى يا أبا بكر، أبواب الجنة كلها ستنادي عليك .

- يا بُني إني أسأل الله السلامة.
- أبو بكر يسأل الله السلامة، فماذا نقول نحن؟

- غفر الله لنا ولكم، ونسأله أن يتقبل منا ما عملناه في سبيله .

- اللهم آمين، فهل نكمل يا خليفة رسول الله؟

- نكمل إن شاء الله.

- فحدثني يا خليفة رسول الله عن قولك لعمر بن الخطاب ما كنت لأفشي سرَّ رسول الله ﷺ.

- كانت حفصة بنت عمر بن الخطاب متزوجة من خنيس

بن حذافة، وكان رجلاً عابداً تقياً وممن شهدوا مع

النبي ﷺ غزوة بدر، ثم مات خنيس، فلما انقضت عدة

حفصة، أراد عمر بن الخطاب أن يبحث لها عن زوج،

فلقي عثمان بن عفان فقال له: إن شئت زوجتك حفصة.

فقال له عثمان: دعني أنظر في أمري.

فلقيه عثمان في اليوم التالي فقال له: لقد بدا لي أن لا

أتزوج.

فوجد عمر في قلبه شيئاً على عثمان!

ثم لقيني فقال: يا أبا بكر إن شئت زوجتك حفصة.

فسكت، ولم أقل شيئاً. فكان عمر أوجد عليّ مما على

عثمان!

ثم بعد أسبوع خطبها النبي ﷺ لنفسه، وتمّ الزواج.

فلقيت عمر بن الخطاب فقلت له: يا عمر، لعلك وجدت

عليّ في نفسك شيئاً إذ لم أجبك يوم عرضت عليّ الزواج من

حفصة، أما إنه لم يمنعني إلا أنني سمعتُ رسول الله ﷺ قد ذكرها لي يريدُها زوجة له، وما كنتُ لأفشي سرَّ رسول الله. ولو تركها لتزوجتها.

- ألم يجدْ عمر حرجاً في أن يبحث لابنته عن زوج؟
- وأين الحرج في ذلك يا بُني، لماذا نبحت للولد عن زوجة صالحة، ولا نبحت للبنت عن زوج صالح؟
- أقصد أن العادة جرت أن يكون الشاب هو الخاطب، فيطرق باب أهل البنت، لا العكس

- نعم هكذا جرت العادة، وهكذا كانت الحياة تسير في المدينة، ولكن ما المانع في أن يرى الرجل شاباً تقياً ورعاً يرضاه زوجاً لابنته فيحدثه في شأنها، يا بُني إن الحلال والعيب لا يجتمعان، ثم فكّر في الأمر من زاوية الأب لا من زاويتك أنت، رجل لديه ابنة أرملة، فأيهما خير أن يجد لها زوجاً صالحاً، ويسعى لإصلاح دنياها، لأن هذه هي سُنّة الحياة، أو يتركها هكذا في الدار، الأمر لا يتعلق بطعامها وشرابها لا أحد منا يُزوج ابنته لأنه يستثقل النفقة عليها، رزق العباد جميعهم على الله، ولكن الحياة ليست طعاماً وشراباً ولباساً، خلقت المرأة للرجل، وخلق الرجل للمرأة. فطرة الله التي فطرنا عليها.

- فهل ترى هذا مقبولاً في المطلقة والأرملة فقط؟
- لا أبداً، وما المانع أن يسعى الأب لتزويج ابنته البكر أيضاً، أن يراها في كنف رجل يراها ويحنو عليها، يا

بُني الأب لا يسدُّ مكان الزوج، والزوج لا يسدُّ مكان الأب، تماماً كما أن الأم لا تسدُّ مكان الزوجة، والزوجة لا تسدُّ مكان الأم.

- حسناً فهمتُ، ولكن ما منعك حين عرض عليك الزواج

من حفصة أن تخبره أن النبي ﷺ أرادها لنفسه؟

- يا بُني إن المجالس بالأمانات، وقد أفضى إليَّ النبي ﷺ

سرِّي بيني وبينه، فكيف أكشف سرِّه؟

- أقصد كي تتجنَّب أن يجد عمر في قلبه شيئاً عليك.

- وماذا لو غيَّر النبي ﷺ رأيه وعدلَ عن الزواج من

حفصة، ألن يتساءل عمر ما الذي حدث، وقد يدخل

الشیطان في الأمر فيحرِّش بين المؤمنين، ويعتقد عمر

أن النبي ﷺ قد سمع شيئاً عن ابنته.

- كلامك صحيح يا خليفة رسول الله.

- لهذا تريثتُ، وعندما تم الزواج شرحتُ موقفِي لعمر.

- فنعم ما فعلتَ.

- بارك الله بك يا بُني، فهل عندك شيء بعد تسألني عنه

أم انتهينا؟

- لا لم تنتهِ بعد، ما زال في جعبتي الكثير!

- فقلْ إذاً.

- ما خبر الطعام الذي أحضره غلامك لك، فتقيأت بعد؟

- كان لي غلام يعمل عندي، وكان من عادتي إذا جاء لي بطعام من غير مالي سألته عن مصدره، وفي يوم من الأيام جاء لي بطعام فأكلتُ، فقال لي: كنتَ تسألني دوماً عن الطعام من أين أتيتَ به وما أراك سألتني هذه المرة!

فقلتُ له: فمن أين أحضرتَ هذا الطعام؟ فقال: كنتُ قد تكهنتُ لرجل من الجاهلية، وما أحسنُ الكهانة إلا أنني خدعته، فلقيني فأعطاني هذا الطعام. فأدخلتُ يدي في فمي أريد أن أتقيأ فلم أقدر. فقالوا: لا تخرج إلا بالماء.

فجعلتُ أشرب الماء، وأضع يدي في فمي وأتقيأ. فقالوا: قد أكثرتَ على نفسك. فقلتُ: والله لو لم تخرج إلا بطلوع روعي لأخرجتها، فإني سمعت النبي ﷺ يقول: أيما لحم نبتَ من حرامٍ فالنار أولى به.

- ولكنك لم تكن تعرف.
- قد عرفتُ.
- أقصدُ أنه ليس ذنبك، وقد اعتدتَ أن تسأل فنسيتَ هذه المرة، أمّا كان يكفي أن تستغفر، فلستَ صاحب الكهانة؟

- لستُ صاحب الكهانة نعم، ولكنني صاحب بطني وما كان لبطن أبي بكر أن يدخله شيء من حرام.

- بهذا الورع سبقتَ الناس يا أبا بكر.
- يا بُني وددتُ لو خرجتُ من الدنيا كفافاً لا لي ولا عليّ.
- خرجتَ منها لك أجر إسلامك، وجهادك، وإفناء نفسك ومالك لهذا الدين، فأسأل الله أن يتقبل منك.
- بارك الله بك يا بُني، وما أحبُّ المديح، فهل عندك شيء بعد تسأل عنه؟
- والله إنك لأهل للمديح، ولكن كما تشاء، سأمسك لسانِي هذه المرة. وبالفعل ما زال عندي ما أسأل عنه.
- فعن أي شيء تريد أن تسأل؟
- عن قول النبي ﷺ: فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟
- جرتُ بيني وبين عمر بن الخطاب محاورَة، فقام عمر غاضباً، فلحقته أسأل أن يسامحني ويستغفر لي، فأبى، حتى أنه أغلق بابَه في وجهي.

فأتيتُ إلى النبي ﷺ لأحدثه بما جرى بيني وبين عمر، وقد بدا على وجهي أثر الانزعاج، فعرف النبي ﷺ ذلك بفراسته، فقال لمن حوله قبل أن أتكلم: أما صاحبكم فقد غامر/ خاصم.

فسلّمت، وجلسْتُ، وأخبرتُ النبي ﷺ بالذي كان بيني وبين عمر، وكيف طلبتُ منه أن يسامحني، ويستغفر لي فرفض.

فقال لي النبي ﷺ: يغفر الله لك يا أبا بكر.

- وما الذي حدث بعد ذلك؟

- ندمَ عمر بن الخطاب على ما كان بيني وبينه، فقصدني في بيتي ليعتذر إليّ فلم يجدني، فأتى مجلس النبي ﷺ، فسلمَ وجلسَ، والنبيُّ ﷺ تبدو عليه علامات الغضب، فخشيتُ أن يقول شيئاً لعمريُحزنه، فجشوتُ على رُكبتَيَّ وقلتُ: يا رسول الله، والله أنا كنتُ أظلم/ أي أن الحق مع عمر.

- فقال النبيُّ ﷺ: إنَّ الله بعثني إليكم فقلتم كذبتَ، وقال أبو بكرٍ صدقَ. وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي، فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟!

- يا لحب النبي ﷺ لك يا أبا بكر إذ لم ينسَ فضلكَ.

- بل قُلْ يا لوفائه، ففضله عليّ أكبر، يكفي أن الله تعالى قد هداني به إلى الإسلام، ولكنه يذكر صنيعي معه، وينسى صنيعه معي، وهذا هو شأن النبلاء، دوماً، يذكرون معروف الناس معهم، ويتحिनون الفرص لسداده، وينسون معروفهم مع الآخرين، ولا ينتظرون عوضاً ولا سداداً، وقد كان النبيُّ ﷺ سيد النبلاء.

- فعلى أي شيء كان الخصام بينك وبين عمر؟

- يا بُني ليس المهم على أي شيء كان الخلاف، سَمَّهَ خلافاً لا خصاماً، الناس عقول وآراء، وكل واحد يرى الأمور بعقله ورأيه، ويحدث أن تختلف وجهات النظر، بل هي غالباً ما تختلف، والناس نفسيات وقلوب، وقد

يكون المرء متضيقاً من أمر ما، فلا يتحمل كلمة لأنه
في ظرف غير عادي، بينما لو كان في حالته العادية ربما
تقبَّل جبالاً من الكلمات.

- صدقتَ يا خليفة رسول الله، ولكن لماذا قمتَ وراء
عمر تسترضيه؟

ولِمَ لا أفعل، أخي وصاحبي وقد حدث بيننا خلاف، وهو
أحبُّ إليَّ من رأيي، وكسبُ الناس أولى من كسب المواقف،
وقد أردتُ بذلك أن أخبر عمر بن الخطاب أنه أثّر على قلبي
- فلماذا لم يقبل اعتذارك وأغلق بابَه في وجهك؟

- يا بُني لكل إنسان طبع، ولو فهمنا طباع الناس الذين
نتعامل معهم لتجنبنا الكثير من المشاكل، ولفهمنا أن
الإنسان إنّما فعل هذا لطبع فيه وليس الأمر مسألة
شخصية، هذا هو طبع عمر، قوي وحاد، وردة فعله
تشبه طبعه، وإنه في طبعه هذا يحبُّ الله ورسوله، نذر
نفسه لخدمة دين الله. فاسأل الله أن يتقبل من أخي
وحبيبي عمر بن الخطاب.

- فلماذا ذهبتَ أنتَ إلى النبي ﷺ تخبره بالذي كان بينك
وبين عمر؟

- لقد عزَّ عليَّ ما حدث بيني وبين عمر، فإن لم أذهب
إلى النبي ﷺ ليكون واسطة خير بيننا، ويحكم بما أراه
الله، فالى من أذهب، ثم أليس إذا حدث خلاف بينك
وبين صديق لك، وأردتَ أن ترضيه بحثتَ عن صديق

مشارك بينكما يكون واسطة خير؟

- بلى.

- ولقد كان النبي ﷺ هو صديقنا المشترك.

- ونبيل عمل بن الخطاب أيضاً خليفة رسول الله،
إذ عندما هداً، لم يُهن عليه أيضاً ما كان بينكما، فجاء
إليك في بيتك يريد أن يصلح الأمر.

- هذا هو عمر، الشديد الحازم، الذي إذا زالت عنه
فورة الغضب، رجع إلى الحق، وإن في شخصية عمر
شيء من شخصية موسى عليه السلام، ألا تذكر حادثة
الأسرى يوم بدر، كيف أخبره النبي ﷺ أنه في رأيه
كموسى عليه السلام، موسى أيضاً كان في طبعه شيء
من الحدة، فحين غضب من بني إسرائيل ألقى الألواح
التي كُتبت بها التوراة كما أخبرنا ربنا في كتابه الكريم.
ولما ذهب عنه فورة الغضب كان أول ما فعله أن أخذ
الألواح، الإنسان لا يمكنه أن يتخلص من طبعه، ولكنه
لا يجري وراءه ولا ينساق له، ونبي الله موسى عليه
السلام غضب للحظة، ثم أعاده إيمانه ونقاء قلبه إلى
الشكل الذي يجب أن يكون عليه، وهذا ما فعله عمر،
غضبه الأول يُشبه إلى حد بعيد إلقاء سيدنا موسى
للألواح، ومجيئه إلى بيتي يحاول إصلاح ما كان بيننا
يُشبه إلى حد بعيد ذهاب فورة الغضب عن كليم الله.
- جميل هذا الربط يا خليفة رسول الله.

- بارك الله بك يا بُني، فهل ما زال عندك شيء تسأل عنه؟
- أجل ما زال عندي ما أسأل عنه.
- فعن أي شيء تريد أن تسأل هذه المرة؟
- عن قصة قولك أدخلاني في سلمكما كما أدخلتماني في حربكما.

- دخلتُ على النبي ﷺ أزوره وهو في بيت ابنتي عائشة، وكان بينها وبينه ما يكون بين المرأة وزوجها من خلاف البيوت، فسمعتها ترفع صوتها على النبي ﷺ، فغضبتُ، وهممتُ أن أضربها وقلتُ: أترفعين صوتك على رسول الله ﷺ؟!

فحال النبي ﷺ بيني وبينها فمنعني منها.
فلما خرجتُ جعل النبي ﷺ يقول لها: ألا ترين أني قد حلتُ بينك وبين الرجل؟
ثم عدتُ ودخلتُ عليهما آخر النهار فإذا هما يضحكان.
فقلتُ لهما: أدخلاني في سلمكما كما أدخلتماني في حربكما.
فقالا: قد فعلنا.

- خلاف زوجي في بيت النبي ﷺ، أليس هذا عجباً يا أبا بكر؟
- وأين العجب في هذا يا بُني، الأنبياء في نهاية المطاف بشر من الناس، وأهلهم كذلك، ويحدث في بيوت الأنبياء ما يحدث في بيوت الناس.

الخلافات الزوجية تقع في كل البيوت، تفرضها المعاملة اليومية، وهموم الحياة، وتقلب النفس البشرية بين طور وآخر، وعندما ترفع عائشة صوتها على النبي ﷺ، فلامر لا علاقة له بمنسوب الإيمان، ولا بمقدار التقوى، إنها الحياة الزوجية فقط، وهي حين فعلت هذا لم تفعله بصفتها إحدى المسلمات العاديات، وإنما بصفتها زوجة، بمعنى أن أي امرأة قد تتعجب وتقول: كيف لامرأة أن ترفع صوتها في وجه النبي ﷺ، ولكنها لو كانت زوجته، وحصل بينها وبينه ما يحصل بين الأزواج، وفي كل البيوت، لربما فعلت أكثر مما فعلت عائشة.

- فلماذا أردت أن تضربها إذاً؟
- لأنه لم يهّن عليّ أن أراها ترفع صوتها على النبي ﷺ.
- ألم تقل أن هذا شيء طبيعي ويحدث في كل البيوت؟
- بلى، قد قلتُ هذا، ولكن كون الأشياء قابلة للحدوث، وهي إن حدثتُ فضمن السياق الطبيعي للحياة، وهذا لا يعني أن نرضى بها، وأنت إذا دخلت بيت ابنتك، ورأيتَ خلافاً بينها وبين زوجها ستسعى لإصلاحه، ولن تقول هذا الأمر طبيعي ويحدث.

تفهّم الأشياء الطبيعية القابلة للحدوث شيء، وعدم العمل على إزالتها شيء آخر، ثم هذا رسول الله ﷺ، ولا أَرْضَى أن أقف في صف ابنتي ضده ولو كان الأمر شيئاً في سياقه الطبيعي.

- إذا أنتَ مع أن يتدخّل الأهل في حياة أبنائهم الزوجية؟
- يا بُني إن التدخّل في حياة الأولاد الزوجية في كل صغيرة
وكبيرة، وإملاء عليهم كيف يتصرّفون، وماذا يفعلون
شيء، والتدخّل في مواقف معينة لإصلاح الأمور شيء
آخر.

أنا مع أن نترك الأولاد يعيشون حياتهم، ومع عدم التدخل
في كل صغيرة وكبيرة، والتعليق على الشاردة والواردة. ولكني
مع إذا وقع الخلاف أن يسعى الأهل ما استطاعوا ليصلحوا هذا
الخلاف بعقل وحكمة وعدل، دون تعصب أهل البنت لابتهم
لدرجة أن ينسوا فضل صهرهم، وكل مواقفه المشرفة السابقة
معهم ومعها، ودون تعصب الأهل لابنهم لدرجة أن ينسوا
أيضاً كل مواقف كتّبتهم المشرفة السابقة معهم ومعه.

ما أردتُ قوله أن نُميّز بين التدخل الذي يُشبه الوصاية،
وبين التدخل الذي يُشبه الرعاية، فالأول مذموم ولا خلاف في
ذلك، والثاني محمود مطلوب ما زال عقلاء الأهل يفعلونه.
- حسناً فهمتُ، ولكن لِمَ برأيك منعك النبي ﷺ أن تتصر
له من ابتك؟

- لأنه نبيل، ولأن عائشة لم تهنّ عليه وهما في خلافهما،
أراد أن يخبرها أنها غالية عنده، وأن الخلاف معها
طقس، سرعان ما يحل مكان المطر شمس مشرقة، أما

- حبها في قلبه فمناخ ثابت، يتكرر دوماً.
- والله إِنَّ هذا النبيَّ لمدرسة!
- وهكذا كان في كل مواقف حياته، في فرحه وحزنه مدرسة، في رضاه وغضبه مدرسة، في كلامه وصمته مدرسة، في حركاته وسكناته مدرسة.
- والله إِنَّكَ قُلْتَ فصدقتَ.
- فهل انتهينا، أم ما زال عندك شيء تسأل عنه؟
- ما زال عندي أشياء يا خليفة رسول الله.
- فقلْ إذاً.
- ما قصة نافق حنظلة؟
- خرج حنظلة بن الربيع من بيته ضجراً، فلقيته في الطريق، فقلتُ: كيف أنت يا حنظلة؟ فقال: نافق حنظلة!
- فقلتُ: سبحان الله، ما تقول؟
- فقال: نكون عند النبي ﷺ يُدْكِرُنَا بالجنة والنار كأننا نراها رأي العين، فإذا خرجنا من عنده عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيراً.
- فقلتُ: فوالله إِنَّا لَنَلْقَى مثل هذا!
- فانطلقنا حتى إذا أتينا النبي ﷺ، فقال له حنظلة: نافق حنظلة يا رسول الله.
- فقال له: وما ذاك؟
- فقال: نكون عندك تُدْكِرُنَا بالجنة والنار كأننا نراها رأي العين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والضيعات فنسينا كثيراً.

فقال له النبي ﷺ: والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي لصافحتكم الملائكة في الطرقات، لكن يا حنظلة ساعة وساعة.

- فما قصد النبي ﷺ بقوله ساعة وساعة؟

- قصد أنه يستحيل على المسلم أن يبقى على وتيرة واحدة من العبادة، ثمة حياة عليها أن تمضي قُدماً، هناك تحصيل رزق، وزوجة وأولاد، وأقارب وأصدقاء وجيران، وزيارات ومناسبات، وهذا هو معنى ساعة وساعة.

وأنها لا تعني أن تكون ساعة لربك وساعة لشیطانك، ساعة في المسجد وساعة في مجلس الغيبة والنميمة، ساعة تتصدق وساعة تأكل الربا، ساعة مع صحبة صالحة وساعة مع صحبة فاسدة، ساعة على سجادة صلاتك وساعة متزينة متعطرة يشم ريحك الناس!

ساعة وساعة تعني أن لا تكون في العبادة ولكنك في المباح لا في الحرام.
- حسناً فهمتُ.

- شرح الله صدرك يا بُني.

- اللهم آمين، وإياك يا خليفة رسول الله.

- فماذا عندك بعد؟

- أردتُ أن أسأل عن قول أُسيد بن حُضير: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر؟

- خرجنا مع النبي ﷺ في بعض أسفاره، وكانت معه من نسائه ابنتي عائشة، حتى إذا كنا في مكان من الصحراء، انقطع عقد لعائشة، فأوقف النبي ﷺ مسير القوم، وجعل يبحث لها عن عقدها، وجعل الناس يبحثون معه، ولكن دون جدوى، وقد اقترب وقت الصلاة، وليس معنا ماء للوضوء، وبسبب تأخرنا في البحث عن عقد عائشة، لم يعد بإمكاننا أن نبلغ المكان الذي فيه ماء لتوضأ، ودخل النبي ﷺ خيمة عائشة لينام قليلاً. وجعل الناس يقولون لي: ألا ترى ما فعلت عائشة بالنبي ﷺ والناس معه، وليسوا في موضع ماء، وليس معهم ماء يكفي للوضوء، وإنما هو للشرب.

فدخلت خيمة النبي ﷺ فإذا هو نائم وواضع رأسه على فخذ عائشة، فعاتبته بصوتٍ منخفضٍ خشية أن يستيقظ النبي ﷺ، وجعلت أطعنّها في خاصرتها بإصبعي لشدة ما سمعت من عتاب الناس، وهي تتحامل على نفسها كي لا تتحرك وتوقظ النبي ﷺ.

- فما الذي حدث بعد ذلك؟

- بعد وقتٍ قصيرٍ قام النبي ﷺ للصلاة، وليس معنا ماءٌ كما أخبرتك، فأنزل الله تعالى آية التيمم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ

إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٠﴾

فقال لي أسيد بن حُضير: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر.

- فما الذي عناه بقوله هذا؟

- أراد أن يقول أن رخصة التيمم لمن لم يجد ماءً، أو وجده وكان عاجزاً عن استخدامه، إنما نزلت بسبب هذه الحادثة، فلو تابعنا مسيرنا لكنا قد بلغنا الماء، وما نزلت آية التيمم، ولكن ليمضي قدر الله، ويقضي أمراً كان مفعولاً.

- والله إنها لبركتكم يا آل أبي بكر.

- بارك الله بك يا بُني، ولكني أراك لم تتبّه لشيء هذه المرة ولم تسأل عنه!

- وما هو يا خليفة رسول الله؟

- أما رأيت كيف أحرّ النبي ﷺ مسير قوم بأكملهم لأجل أن يبحث لعائشة عن عقدها؟

- بلى والله إنه لتصرف عجيب.

- أرايت كيف كان النبي ﷺ يتبّه لأدق التفاصيل، وكيف يجبر الخواطر في مواقف يظنّ الناس أنها ليست

موضعاً لهذا، ولكنه برحمته وشفعته ما كان ليترك هذه
الحادثة تمر مرور الكرام.

- صدقتَ يا خليفة رسول الله، فماذا عن العقد، هل
وجدتموه؟

- أجل وجدناه، فبعدما نزلت آية التيمم وتيممنا وصلينا،
أردنا الارتحال، فحركنا الناقة التي تركبُ عليها عائشة
فإذا العقد تحتها.

- أسرة مباركة يا أبا بكر.

- بارك الله بك يا بُني، فماذا عندك بعد؟

- أردتُ أن أسألك عن حديث جرّ الثياب خيلاء، وشهادة
النبي ﷺ لك؟

- كنا عند النبي ﷺ يوماً فقال: من جرّ ثوبه خيلاء، لم
ينظر الله إليه يوم القيامة.

فقلتُ: يا رسول الله، إنَّ أحدَ شِقَيَّ ثوبي يسترخي إلا أن
أتعاهد ذلك منه.

فقال: إنك لستَ تصنعُ ذلك خيلاء.

- هذه براءة لك من الكبر والخيلاء هنيئاً لك هذه الشهادة
من الصادق الأمين الذي لا ينطق عن الهوى.

- بارك الله بك يا بُني.

- ولكن أردتُ أن استفسر ما علاقة جرّ الثوب بالخيلاء
والكبر؟

- كان من عادة العرب في الجاهلية أنه من أراد أن يتكبر أو يستعلي على الناس، أو أن يُظهر ثراءه حتى، جعل ثوبه طويلاً يجرُّ على الأرض، وقد جاء الإسلام بالتواضع، وللقضاء على الاستعلاء والكبر في النفوس، لما فيه من ضرر على قلب صاحبه، وضرر على قلوب الناس لأن التعامل مع الثري المتكبر ربما جعلهم ينظرون إلى دُنياه، ويتمنون ما عنده من المال.

وقد حدثنا النبي ﷺ يوماً فقال: بينما رجلٌ يمشي في حُلَّةٍ تُعجبه نفسه، مُرَجِّلٌ جُمَّتَه/ شَعْرَه، إذ خسف الله به، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة.

- وهل الإسلام ضد أن يكون الإنسان أنيقاً في ثيابه، مسرَّحاً شَعْرَه، واضعاً عطرأً جميلاً؟

- أبداً يا بُني، هذا من الإسلام، والله جميل يُحِبُّ الجَمال، وإنَّ الله يُحِبُّ أن يرى أثر نعمته على عبده. ولكن الأناقة شيء والكبر شيء آخر.

الإسلام مع الأناقة وضد الكبر، أي ضد أن يجعل الرجل من مظهره وسيلة للاستعلاء على خلق الله، الفكرة كلها في أن تكون الدنيا في يدك لا في قلبك، وأن يُجَمِّلَ الثوب جسدك لا أن يُفسدَ قلبك!

- حسناً فهمتُ يا خليفة رسول الله.

- فهل عندك من شيء تسأل عنه بعد؟
- أجل ما زال عندي، فحدثني عن خلاف حدث بينك وبين ربيعة الأسلمي على نخلة كل منكما قال أنهاله.
- كان ربيعة الأسلمي يخدم النبي ﷺ، فأعطاه أرضاً بجوار أرض لي، فجاء ربيعة يوماً فقال: هذه النخلة لي. فقلت: لا هي لي.
- فكان هو يقول لي ما يكون بين الخصوم، وأنا أقول له، حتى غضبتُ فقلتُ له كلمةً كررتها، ثم ندمتُ، فقلتُ له: قُل لي مثلها.
- فرفض أن يردَّ عليّ...
- فقلتُ: لتقولنَّ أو لأستعيننَّ عليك النبي ﷺ!
- فانطلقتُ أريد النبي ﷺ، وانطلقَ ربيعة يتبعني، فجاء جماعة من قوم ربيعة فقالوا له: رحمَ الله أبا بكر، بأي شيء يستعدي عليك النبي ﷺ، وقد قال لك ما قال؟
- فقال ربيعة: أتدرون من هذا؟ هذا أبو بكر الصديق، هذا ثاني اثنين، وهذا ذو شعبة المسلمين، إياكم أن تدخلوا في الأمر معي فيراكم تنصرونني عليه فيغضب فيأتي رسول الله ﷺ فيغضب لغضبه. فيغضبُ الله تعالى لغضبهما، فيهلك ربيعة.
- قالوا: فما تأمرنا؟
- قال: إرجعوا، أنا أذهب وحدي.
- وما الذي حدث بعدها؟

- تعني ربيعة حتى إذا وصلنا عند النبي ﷺ، سبقني بالكلام، وأخبره بالذي كان مني.

فقال له النبي ﷺ: يا ربيعة، ما لك وللصديق؟

فقال ربيعة: يا رسول الله تخاصمنا في نخلة، فقال لي كلمةً كرهتها، ثم ندم على قوله، وأراد أن أقول له مثلها، فأبيتُ.

فقال له النبي ﷺ: أجل لا تردّ عليه، ولكن قل له غفر الله لك يا أبا بكر.

فقال لي: غفر الله لك يا أبا بكر.

فمضيتُ وأنا أبكي!

- فلماذا لم تتنازل له عن النخلة وأنت الذي أنفقت كل مالك في سبيل الله؟

- يا بُني أن تكون كثير الصدقة شيء، وأن يأخذ الناس مالك وأنت تنظرُ إليه شيء آخر، ولو سألني ربيعة النخلة على أنها لي لكنتُ تركتها له، ولكن أن يقول أنها له وأنا على يقين أنها لي فقد وجدتُ أنه أنسب، أن أثبتَ حقي فيها.

- فهل كانت الكلمة التي قلتها له بذيئة؟

- معاذ الله، إنني لم أكن فاحشاً بذيئاً في الجاهلية حتى أكون في الإسلام، ولكن في لحظة الغضب قد يقول الإنسان كلاماً يجرح فيه غيره وإن لم يكن هذا الكلام بذيئاً.

- صدقتَ، ولكن لماذا أردتَ منه أن يردَّ عليك بمثلها؟
- لأنني لا أحبُّ أن يكون لأحدٍ عندي حق، لا أريدُ أن أقف بين يدي الله تعالى يوم القيامة خصماً لأحد المسلمين بسبب كلمة قلتها له.
- ولكن للأمانة يا خليفة رسول الله أعجبني أن ربيعة عرفَ قدركَ، ووصفكَ بأوصافٍ تليق بك، وقد قدَّر مكانتك من النبي ﷺ وأنتك أثير عنده، وأنه يغضب لغضبك.
- أي والله لقد أنزلني منزلي، وهذا ما زاد الطين بلة!
- وكيف هذا؟
- يا بُني حين تُخطئ في حق أحد فيردُّ عليك بمثل ما قلته له والله أنه ليرحك، أما أن يعترف بفضلك، دون أن يردَّ عليك، فهو عندها لم يسامحك، ولن يدعكَ تسامح نفسك!
- وأعجبني موقف النبي ﷺ، فعلى حبه لك، وعلى قوله لربيعة ما لك وللصديق، إلا أنه عندما عرفَ أن الحقَّ مع ربيعة أرشده لما فيه صلاح القلوب.
- وهل كنتَ تحسبُ أن النبي ﷺ يقفُ مع باطلٍ ضدَّ حقٍّ لأجل أحدٍ من الناس ولو كان أباً بكر؟
- لا والله، كيف يفعل وهو القائل: لو أن فاطمة بنت محمد سرقَتْ لقطعْتُ يدها!
- أحسنتَ يا بُني، فهل انتهينا، أم ما زال عندك شيء تسأل عنه؟

- بالفعل ما زال عندي ما أسأل عنه.
- فسَلْ إذاً.
- حدثني عن حديث البقرة التي تُكَلِّمُ الناس الذي أخبر
النبي ﷺ للناس؟
- صلى النبي ﷺ الفجر، ثم أقبل على الناس يُحدثهم
فقال: بينما رجل يسوق بقرةً له، إذ ركبها فضر بها،
فالتفت إليه البقرة، فقالت: إني لم أُخلق لهذا، ولكني
خُلِقْتُ للحرث
- فقال الناس تعجباً: سبحان الله بقرة تتكلم؟
- فقال النبي ﷺ: إني أؤمنُ به وأبو بكر وعمر!
- ثم قال: بينما رجل في غنمه إذ عدا عليه الذئب فذهب بشاةٍ
منها، فلحقه حتى أنقذها منه، فقال له الذئب: قد استنفذتها
مني، فمن لها يوم السَّبْع؟ يوم لا راعي لها غيري؟
- فقال الناس تعجباً: سبحان الله ذئب يتكلم؟
- فقال النبي ﷺ: إني أؤمنُ به وأبو بكر وعمر.
- فلماذا قال النبي ﷺ: وأبو بكر وعمر تحديداً؟
- هذا لأننا كُنَّا غائبين!
- لم أفهم.
- أراد أن يقول للناس: لو أنَّ أبو بكر وعمر كانا جالسين
معنا لصدَّقا ما قلته.
- يا لها من شهادة يا أبا بكرٍ لك ولعمر، كان يعلمُ أنكما
تصدَّقانه في كل ما يقول ولو كان الحديث عجباً على الناس.

- وهذا والله حديثٌ أحبُّ إليَّ مما شهدته، اللهمَّ إلا قوله في الغار: يا أبا بكر لا تحزن إنَّ الله معنا، يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما.

- فهنيئاً لك يا خليفة رسول الله .

- بارك الله بك يا بُني، فهل عندك من شيءٍ بعد تسأل عنه ؟

- سؤالٌ أخير في هذا المجال، واعذر إطالتي عليك.

- لا عليك يا بُني، فعن أي شيءٍ أردت أن تسأل؟

- عن سؤال عمرو بن العاص للنبي ﷺ: أي الناس أحبُّ إليك .

- بعث النبي ﷺ عمرو بن العاص أميراً على غزوة ذات السلاسل، فعاد ظافراً منتصراً بفضل الله، فلما جاء إلى النبي ﷺ، قال له: يا رسول الله من أحب الناس إليك؟ فقال له: عائشة.

فقال عمرو بن العاص: ومن الرجال؟

فقال النبي ﷺ: أبوها

قال: ثم مَنْ؟

قال: عمر بن الخطاب.

- ولماذا سأله عمرو بن العاص هذا السؤال؟

- يا بُني، كنا نتسابق على مكان لنا في قلب النبي ﷺ، وقد عاد عمرو بن العاص منتصراً، فأراد أن يسعد نفسه ويغتتم هذه الفرصة السانحة، ليقول له أنت. ولكنَّ

النبي ﷺ على حبه لنا جميعاً، إلا أنه قال عائشة لأنه لا يُحابي ولو كان عمرو بن العاص صاحب النصر المظفر بفضل الله.

- ولكنه قال ومن الرجال أبوها.

- أجل يا بُني لقد قال.

- فهنيئاً لك هذه المكانة في قلب النبي ﷺ.

- بارك الله بك يا بُني، وكل المسلمين لهم في قلبه محبة،

فقد خرج يوماً إلى المقبرة، فقال: السلام عليكم دار

قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، وودتُ أني

قد رأيتُ إخواننا

فقلنا: يا رسول الله ألسنا بإخوانك؟

فقال: بل أنتم أصحابي، وإخواني الذي لم يأتوا بعد، وأنا

فرطهم على الحوض.

فقلنا: يا رسول الله كيف تعرفُ من يأتي من أمتك بعدك؟

فقال: أرايتم لو كان لرجلٍ خيلٌ نُحر محجلة في خيلٍ دُهم

بهم ألا يعرفُ خيله؟

قلنا: بلى يا رسول الله.

فقال: فإنهم يأتون يوم القيامة غراً محجلين من الوضوء،

وأنا فرطهم على الحوض.

- هل يأذن خليفة رسول الله أن يحدثني عن ظروف تولّيه
الخلافة؟

- تلك قصة طويلة يا بُني، بدأت قبل أن يتليني الله بهذا
الأمر!

- وهل تعتبر الخلافة ابتلاءً؟

- كل حياة الإنسان ابتلاء يا بُني، فالإنسان في امتحان منذ
لحظة تكليفه حتى لحظة موته. والله ينظرُ ما يفعلُ عبده
في هذا الامتحان، ينجح أم يرسب، ومخطئ من يظنُّ،
أن الابتلاء بما يحسبه الإنسان شراً أهون مما يحسبه
خيراً.

- وكيف ذلك يا خليفة رسول الله؟

- تقصد كيف يكون الإنسان طوال عمره في امتحان؟ أم
عن أن الابتلاء بما يحسبه شراً أهون من الابتلاء بما
يحسبه خيراً؟
- كلاهما.

- حسناً سأخبرك، كل لحظة من لحظات عمر الإنسان هي
امتحان، عندما يسيرُ في الطريق فهو في امتحان هل
يغضُّ بصره أم يطلق له العنان؟ هل يسلم على الناس

ويبتسم لهم أم يسير صلفاً متكبّراً كأنه لا يرى أحداً؟
عندما يتزوج هو في امتحان دائم، هل يُحسّن إلى هذه
المرأة التي سيسأله الله عنها فيقوم بحقها ويعينها على
دينها ودنياها أم يظلمها ويكون هو والدنيا عليها؟ عندما
يرزقه الله أولاداً فهو في امتحان هل يربيهم حقّ التربية،
ويعلمهم الأخلاق والإسلام أم يعتقد أن دور الأب فقط
في إحضار الطعام والشراب واللباس فقط؟

عندما يُحصّل رزقه فهو في امتحان أيضاً، هل يصدق في
بيعه وشرائه أم يغش ويحلف كذباً؟ هل يخدمُ مراجعيه لأن
هذا واجبه الذي يتقاضى لأجله راتبه أم يشقُّ على الناس ولا
يُسّر أمورهم؟

عندما تكون له عائلة فهو في امتحان، هل يبر أبويه، هل
يصل رحمه، هل يحسن إلى إخوته أم يُضيع هذا كله؟
عندما يكون له بيت، فقد صار لديه جيران فكيف هو مع
جيرانه، جار مأمون الجانب، حسن الأخلاق، يطمئن الناس له،
ويأمنونه على دمائهم وأموالهم وأعراضهم أم يندمون على اللحظة
التي جاورهم فيها ويتمنون أنها ما كانت ولا رأوه ولا رآهم؟

عندما يأوي إلى فراشه ليلاً فهو في امتحان، هل نوى أن
ينام ليلاً طويلاً ولا يهمله فاتته صلاته أم أدركها، أم يحتاط
ليستيقظ لصلاة الفجر؟

هكذا هي الدنيا يا بُني امتحان دائم!

- حسناً فهمتُ، فكيف يكون الابتلاء بما يحسبه الإنسان

شراً أهون من الابتلاء بما يحسبه خيراً؟

- المصائب تكسرُ الناس يا بُني، وترقق قلوبهم، وعندما

ينكسرُ الإنسان ويرقُّ قلبه تجده بفطرته يلجأ إلى الله

تعالى، أنظرُ إلى المرضى كيف لا يكفون عن الالتجاء

إلى الله سبحانه، وكيف لا يتوقفون عن الدعاء والتضرع،

أنظرُ إلى الفقراء كيف يسألون الله الستر والبركة في

الرزق، فتجد قلوبهم لينة، وأخلاقهم سمحة، أنظرُ إلى

الخائفين في زمن الويلات والحروب كيف اعتصموا

بالله وأناخوا مطاياهم ببابه يسألونه الأمن والنجاة، قلما

يُبتلى الإنسان بالشر ولا ينجح في الامتحان، أما الابتلاء

بالخير فيجعل الإنسان ينسى ويطغى، وقد تجد الغني

الشاكر، ولكن قلة الشكر في الأغنياء أكثر، تجدهم

يتكبرون، ويحسبون أن ما عندهم قد حصلوه بجهدهم

وشطارتهم، تماماً كما قال قارون متباهياً بماله « إِنَّمَا

أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي »!

أنظرُ إلى قلوب الأصحاء وقارنها بقلوب المرضى تجد أن

قلوب المرضى أرق، ذلك أن الإنسان في أوج صحته وقوته

يعتقد أن الصحة والقوة هما حقه، بينما المريض الذي سلب

القوة والصحة تجده أقرب إلى القوي سبحانه.

أُنْظِرْ لِلْآمِنِينَ مِنَ الْحُرُوبِ وَالْفِتَنِ، تَجِدُ أَغْلِبَهُمْ فِي غَفْلَةٍ
عَنِ اللَّهِ، يَعِيشُونَ كُلَّ حَيَاتِهِمْ لِلدُّنْيَا، لِأَنَّهُمْ يَرُونَ الْمَوْتَ بَعِيداً
فَيَنْسَوْنَ الْإِسْتِعْدَادَ لَهُ، بَيْنَمَا الَّذِينَ يَحِيطُ بِهِمُ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ
جَانِبٍ تَجِدُهُمْ أَكْثَرَ اسْتِعْدَاداً لَهُ!

- صَدَقْتَ يَا خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ.

- بَارَكَ اللَّهُ بِكَ يَا بُنَيَّ.

- وَالْآنَ هَلْ يَتَكَبَّرُ خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ أَنْ يَحْدِثَنِي عَنْ
ظُرُوفِ تَوَلِيهِ الْخِلَافَةَ؟

- لَكَ هَذَا يَا بُنَيَّ، فَاسْمَعْ.

- كُلِّي آذَانَ صَاغِيَةٍ لَكَ.

- عَادَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ حُجَّةِ الْوُدَاعِ فِي آخِرِ شَهْرِ ذِي الْحِجَّةِ
مِنَ السَّنَةِ الْعَاشِرَةِ لِلْهِجْرَةِ، فَأَقَامَ فِي الْمَدِينَةِ مَا تَبَقِيَ
مِنْ ذِي الْحِجَّةِ، ثُمَّ شَهْرَ اللَّهِ الْمُحَرَّمَ، ثُمَّ فِي شَهْرِ صَفَرٍ
بَدَأَ بِتَجْهِيزِ الْجَيْشِ لِلْخُرُوجِ وَجَعَلَ أَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ أَمِيرًا
عَلَيْهِ وَكَانَ يَوْمَهَا ابْنُ ثَمَانِي عَشْرٍ سَنَةً، فَتَكَلَّمَ بَعْضُهُمْ
فِي إِمَارَتِهِ وَلَمْ يَعْجِبْهُمْ الْأَمْرُ كَوْنِ أَسَامَةَ مَوْلَى وَصْغِيرٍ
فِي السَّنِ! فَلَمْ يَرْضَ النَّبِيُّ ﷺ بِهَذَا الطَّعْنِ فِي أَسَامَةَ،
فَصَعَدَ الْمَنْبَرَ وَقَالَ: «إِنْ يَطْعَنُوا فِي إِمَارَتِهِ فَقَدْ طَعَنُوا فِي
إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلُ، وَأَيُّمَ اللَّهِ إِنَّهُ كَانَ خَلِيفاً لِلْإِمَارَةِ، وَكَانَ
مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَإِنَّ ابْنَهُ هَذَا لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ
بَعْدَهُ».

وبينما الناس يستعدّون للخروج في جيش أسامة، إذ مرَّصَ النبيُّ ﷺ مرضاً شديداً، منعه من الخروج إلى الصلاة ليوم الناس .

- فمن كان يؤم الناس في مرضه؟
- لما اشتدَّ على النبي ﷺ المرض، استأذن زوجته أن يُمرَّصَ في بيت عائشة فأذنَ له، وكان عنده نفر من أصحابه يعودونه، فجاء بلال ودعاه إلى الصلاة، فقال: مُروا من يصلي بالناس .

فخرج عبد الله بن زمعة من عند النبي ﷺ، فلقيَ عمر بن الخطاب ولم يجدني، فقال له: يا عمر قُمْ فصلَّ بالناس . فتقدم عمر، فكبَّر، وقرأ وكان عمر جهوري الصوت، فسمع النبي ﷺ صوته، فقال: فأين أبو بكر؟ يابى الله ذلك والمسلمون، فبعثَ إليَّ فصليتُ بالناس .

فقال عمر بعد ذلك لعبد الله بن زمعة: ويحك ماذا صنعتَ بي يا ابن زمعة؟ والله ما ظننتُ حين أمرتني إلا أن رسول الله ﷺ أمركَ بذلك، ولولا ذلك ما صليتُ بالناس .
فقال له: والله ما أمرني النبي ﷺ بشيء، ولكني حين لم أرَ أبا بكر، رأيتكَ أحقَّ من حضر بالصلاة بالناس .
- إذا رُفضَ النبيُّ ﷺ إمامة عمر للناس ؟

- الأمر كما أخبرتك.
- فلماذا لم يُسمِّك إذاً؟
- ما ظنُّ أن يتقدَّم أحدٌ غيري، والأمر كما رأيْتَ فابن زمعة بحثَ عني أولاً فلما لم يجدني طلب ذلك من عمر.
- فما الذي حدث في الصلوات اللاحقة؟
- لما حضرت الصلاة التالية قال النبي ﷺ: مُروا أبا بكر فليصلَّ بالناس
- فقال عائشة: يا رسول الله إن أبا بكر رجل أسيف/ سريع الحزن والبكاء، وإنه متى يقيم مكانك غلبه بكاؤه فلم يسمع الناس منه، فلو أُمِّرتَ عمر؟
- فقال: مروا أبا بكر فليصلَّ بالناس.
- فقال عائشة لحفصة: قولي للنبي ﷺ إن أبا بكر رجل أسيف، وإنه متى يقيم مكانك غلبه بكاؤه فلم يسمع الناس منه، فلو أُمِّرتَ عمر؟
- فلما قالت حفصة ذلك له، قال: إنكنَّ صويحبات يوسف!
- مروا أبا بكر فليصلَّ بالناس.
- فقالوا لي فصليتُ بالناس.

فلما دخلتُ في الصلاة، وجدَ النبي ﷺ في نفسه خفة ونشاطاً، فقام متكئاً على رجلين، حتى وقف في الصف خلفي، فلما سمعتُ حسَّه، أردتُ أن أتأخر ليتقدم مكاني، فأشار إليَّ أن تابع صلاتك، فتابعتهَا، وبقيتُ طوال مرض النبي ﷺ أصلي بالناس.

- يا لهذا الإصرار عليك يا خليفة رسول الله، كم كنت
أثيراً على قلبه.

- هذا فضل الله يُؤتيه من يشاء يا بُني.

- فماذا عن يوم وفاة النبي ﷺ؟

- بقيتُ أصلي بالناس طيلة مرض النبي ﷺ، حتى إذا كان
يوم الإثنين، الثاني عشر من شهر ربيع الأول من السنة
الحادية عشرة للهجرة، وقفتُ لأصلي بالناس صلاة
الفجر، فكشفَ النبي ﷺ ستر الحُجرة، وهو قائم ينظرُ
إلينا، وكأن وجهه ورقة مصحف من سروره لتجمعنا
وعدم فرقتنا، وظننا أنه سيخرج ليصلي معنا، فقد بدا لنا
أنه بخير، فأشار إلينا أن أتموا صلاتكم، ودخل حجرة.

وحين انتهينا من الصلاة، ظنَّ الناس أن الوجع ذهبَ
عن النبي ﷺ وأنه قد شُفي، فدخلتُ عليه وما به من وجع،
ففرحتُ لهذا، وقلتُ له: يا نبيَّ الله، إني أراك بنعمة من الله
وفضل كما نحبُّ، واليوم يوم زوجتي بنت خاتمة أفأتيها؟
فقال لي: نعم.

فخرجتُ من عنده إلى أهلي بمنطقة يُقال لها السنع، فلم
تحن صلاة الظهر حتى جاء من يخبرني أن النبي ﷺ قد لحق
بالرفيق الأعلى.

- أشهد أن قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة، ونصح الأمة،
وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين.

- وأنا على ذلك من الشاهدين.

- فحدثني عما كان منك يوم وفاة النبي ﷺ؟

- اضطرب المسلمون يومها اضطراباً شديداً، كانوا في
المسجد حيارى، منهم من أصابته الدهشة فكأنه انعقد
لسانه، ومنهم من لم تعد قدماء تحملاه، ومنهم من نفى
عنه احتمالية الموت جملةً وتفصيلاً! وإنها والله لمصيبة
ما أبتلَى المسلمون بمثلها أبد الدهر ويكفي أن النبي ﷺ
قال: «إذا أصاب أحدكم مصيبة فليتذكر مصابه بي، فإنها
أعظم المصائب»!

وكان من الذين أنكروا موته عمر بن الخطاب حيث قام في
المسجد فقال: إن رجلاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ
قد مات. وإنه والله ما مات، ولكنه ذهبَ إلى ربه كما ذهب
موسى بن عمران، وقد غاب عن قومه أربعين ليلةً ثم رجع إليهم
بعد أن قيل قد مات! والله ليرجعَنَّ رسول الله ﷺ كما رجع
موسى، وليقطعنَّ أيدي رجال وأرجلهم زعموا أنه قد مات.

ودخلتُ المسجد وعمر على هذه الحال، فلم أكلمه، وإنما
دخلتُ إلى حجرة ابنتي عائشة حيث النبي ﷺ مسجى عليه
ثياب يمانية، فكشفتُ عن وجهه، وقبّلتُه ثم قلتُ له: بأبي أنت

وأمي ما أطيبك حياً وميتاً، أما الموتة التي كتبها الله عليك فقد ذقتها ثم لن يصيبك بعدها موتة أبداً.

ثم رددت الغطاء عليه، وخرجت إلى المسجد وعمر ما زال يكلم الناس. فقلتُ له: على رسلك يا عمر. فأبى إلا أن يتكلم، فلما رأيتُه لا يسكت ولا يسمع، تركته، وأقبلتُ أريدُ أن أحدثَ الناس، فتركوا عمر بن الخطاب وأقبلوا عليّ، فحمدتُ الله وأثيتُ عليه ثم قلتُ: أيها الناس من كان يعبدُ محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبدُ الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموت.

ثم قرأتُ قول الله تعالى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾.

فلما سمع الناس قولي علموا يقيناً أن النبي ﷺ قد مات.
- فماذا عنيتَ بقولك: أما الموتة التي كتبها الله عليك فقد ذقتها ثم لن يصيبك بعدها موتة أبداً؟ فهل يموت الإنسان مرتين؟

- نعم يموتُ الإنسان مرتين، مرةً إذا مات كما يموت الناس، ومرةً ثانية إذا ماتت أفكاره التي كان ينادي بها، ودعوته التي كان يدعو إليها، وهذا بالضبط ما عنيته

فإني لا أستطيع أن أرد عنه الموتة الأولى، ولا أردھا عن نفسي. فكل نفس ذائقة الموت نهاية المطاف، أما شرعه ودينه وسنته فلن تموت أبداً، لقد عزمْتُ أن أحمل لواءه، وأبلغ سنته، وأموت في سبيل شرعه. - ما أعظمك وما أفقھك، تؤمن أن الدين مسؤولية وليس مجرد اعتقاد!

- هو والله كذلك، فهذا الدين جاء للبشرية حتى قيام الساعة، وليس حتى وفاة النبي ﷺ، متى عرفنا هذه الحقيقة ووعيناها في عقولنا وقلوبنا، عرفنا أن كل مسلم هو نائب عن النبي ﷺ، يُبلِّغُ شرعه، ويلتزم سنته، ويقدم الغالي والنفيس ليقبى هذا الدين.

- ما أروع خطابك، بهذه الكلمات القلائل أخرجتَ الناس من ذھولهم وحيرتهم، وأرجعتهم إلى الفهم الصحيح، بأن الله هو الحي الذي لا يموت، وأنه وحده الذي يستحقُّ العبادة، وأن الإسلام باقٍ أبد الدهر رغم وفاة النبي ﷺ!

- هذا مما فتحه الله عليَّ يومها يا بُني. - فكيف جاءك هذا الثبات، وأنتَ أحق الناس أن تنهار أمام هذا الحدث الجلل، فأنتَ أرقهم قلباً، وأكثرهم صلةً وصداقةً ومحبةً للنبي ﷺ؟

- الله وحده هو من يُنزل السكينة على عباده في هذه
المواقف، وقد منَّ الله سبحانه عليَّ بسكينةٍ وجدتها
في قلبي، وصواباً في لساني، واستخدمني ليكون قولي
فصلاً، وكلامي فيصلاً
- فكيف بايعك الناس بالخلافة؟

- لما أيقن المسلمون بوفاة النبي ﷺ اجتمع الأنصار في
سقيفة بني ساعدة قبل أن ندفنَ النبي ﷺ وتداولوا الأمر
بينهم في اختيار من يلي الخلافة من بعده.

وعقدَ الأنصارُ العزمَ على مبايعة سعد بن عبادَةَ، ولما
بلغنا اجتماعهم والغرض الذي لأجله كان هذا الاجتماع، قال
المهاجرون: انطلقوا بنا نرى ما يصنعُ إخواننا من الأنصار.
فانطلقنا حتى أتيناهم في سقيفة بني ساعدة، فإذا رجل
قاعد مزمل بينهم.

فقلنا: من هذا؟

قالوا: هذا سعد بن عبادَةَ.

فقلنا: ما باله هكذا؟

قالوا: مريض يوعك.

فلما جلسنا، قام خطيبٌ من الأنصار، فحمد الله وأثنى
عليه ثم قال: نحن أنصار الله، وكتيبة الإسلام، وأنتم معشر
المهاجرين نفر قليل، والأمر إنما يجب أن يكون إلينا.

فقام عمر بن الخطاب يريد أن يتكلم، فأشرت إليه أن دع الأمر إليّ.

فقلتُ وقلتُ: يا معشر الأنصار ما ذكرتُم فيكم من خير فأنتم له أهل، ولن يعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسباً وداراً، وقد رضى لكم هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم، وأخذتُ بيد عمر بن الخطاب ويد أبي عبيدة بن الجراح.

فقال عمر: والله أن أقدم فتضرب عنقي أحب إليّ من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر!

فقال رجل من الأنصار: منا أمير ومنكم أمير.

فقال عمر: هذا والله أول الوهن، وإن هذا الأمر لا ينعقد إلا لرجل واحد، وهذا أبو بكر صديق رسول الله ﷺ، ورفيق هجرته وثاني اثنين إذ هما في الغار، وقد أمره النبي ﷺ أن يصلي بالناس حين مرض فأيكُم تطيبُ نفسه أن يتقدم عليه. فسكتوا ولم يقولوا شيئاً.

فقلتُ: يا عمر أبسط يدك أبايعك.

فقال لي عمر: أنت أفضل مني.

فقلتُ: أنت أقوى مني.

فقال: فإن قوتي لك مع فضلك.

ثم وثب فأخذ بيدي فبايعني، فقام كل من في السقيفة فبايعوني...

- بهذه البيعة إذا صرّت خليفة للمسلمين؟
- هذه كانت البيعة الخاصة، ثم تلاها البيعة العامة.
- وما هي البيعة العامة؟
- بيعة من تبقى من الصحابة، كانت بيعة السقيفة يوم الإثنين يوم وفاة النبي ﷺ. ولما كان يوم الغد جلستُ عند المنبر، فقام عمر قبلي فقال: أيها الناس قد كنتُ قلتُ لكم بالأمس مقالة ما كانت إلا عن رأيي، وما وجدتُها في كتاب الله عزَّ وجل، ولا كانت عهداً عهدته إليَّ النبي ﷺ ولكني قد كنتُ أرى أن رسول الله ﷺ سيدبر أمرنا حتى يكون آخرنا، وإنَّ الله قد أبقي فيكم كتابه الذي فيه هدى به رسوله، فإن اعتصمتم به هداكم لما كان هداه له، وإنَّ الله جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله ﷺ، وثاني اثنين إذ هما في الغار وأولى الناس بأمركم فقوموا فبايعوا.
- فقام الناس فبايعوني...

- رحم الله عمر بن الخطاب والله إنه لنعم الرجل.
- أي والله إنه لنعم الرجل القوي الأمين.
- فهل تكلمتُ يومها بعد كلام عمر؟
- أجل يا بُني، تكلمتُ بعد أن فرغ الناس من مبايعتي.
- فماذا قلتُ؟
- حمدتُ الله وأثنيْتُ عليه، ثم قلتُ: أيها الناس إني قد

وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ، فَإِنْ أَحْسَنْتُمْ فَأَعِينُونِي،
وإنْ أَسَأْتُ فَقُومُونِي. الصَّدَقَةُ أَمَانَةٌ، وَالْكَذِبُ خِيَانَةٌ،
وَالضَّعِيفُ فِيكُمْ قَوِيٌّ عِنْدِي حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ حَقَّهُ إِنْ شَاءَ
اللَّهُ. وَالْقَوِيُّ فِيكُمْ ضَعِيفٌ عِنْدِي حَتَّى أَخْذَ الْحَقَّ مِنْهُ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

أَيُّهَا النَّاسُ لَا يَدْعُ قَوْمَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا ضَرْبَهُمُ اللَّهُ
بِالذَّلِّ، لَا تَشِيعُ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطَّ إِلَّا عَمَّهْمُ اللَّهُ بِالْبَلَاءِ،
أَطِيعُونِي مَا أَعْطَيْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنْ عَصَيْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَلَا
طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ، قُومُوا إِلَى صَلَاتِكُمْ يَرْحَمُكُمُ اللَّهُ.

- بالعودة إلى سقيفة بني ساعدة يا خليفة رسول الله،
لماذا أراد الأنصار مبايعة سعد بن عباد؟
- لقد علم الأنصار بحسن فهمهم أنه لا بد أن يكون للناس
خليفة وحاكم، فلا تستقيم دولة إلا به، وعندما توفي
رسول الله ﷺ سارعوا يحضرون لبيعة سعد بن عباد.
أما لماذا سعد بن عباد فلأنه زعيمهم، فقد كان سعد
بن عباد وسعد بن معاذ زعيما الأوس والخزرج، وأما
قد استشهد سعد بن معاذ، فمن البديهي أن تقع أعينهم
على سعد بن عباد.

- أعني لماذا أرادوا أن يقطعوا بالأمر دونكم؟
- إن كانوا أحسنوا في فهمهم أنه لا بد أن يكون للناس إمام،
وعملوا من فورهم لهذا الأمر، فإنهم قد أخطأوا إذ

أرادوا أن يقطعوا بالأمر دوننا، هذا أولاً، وثانياً أخطأوا حين ظنوا لأن المدينة مدينتهم، وهم الأكثرية أن يكون الخليفة منهم، وما هكذا تنعقد البيعة، لا صلة قربي، ولا عن مكان وجغرافيا، وإنما تكون للأصلح والأكفأ بغض النظر عن اعتبارات المكان والعرق.

- ولكنك كنتَ ليناَ معهم وأنت تردهم عن هذا الخطأ؟
- يا بُني هؤلاء إخواننا، استقبلونا في مدينتهم، وقاسمونا بيوتهم وخبزهم، ودافعوا عنا، وحاربوا لأجل هذا الدين العربَ قاطبةَ وما يُنكر فضلهم إلا جاحد. ثم إن كل إنسان ينظر إلى الأمر من زاويته، وقد يصيب وقد يُخطئ، ليس المهم كيف ينظر الإنسان إلى الأمر، المهم أن لا يُكابِر ويعاند ويبقى على رأيه الخاطئ إذا ما تبَيَّن له خطأ رأيه.

- صدقتَ يا خليفة رسول الله، ولكنني استغربتُ من زهدك في الخلافة، فأنتَ لم تخبر الأنصار بعدم أحقيتهم بها لتأخذها لنفسك، على العكس أردتَ أن تُرجع الحقَّ إلى قريش في أن يكون الخليفة منهم لأسباب منطقية ذكرتها، ثم بعد ذلك طلبتَ من عمر أن يمدَّ يده لتبايعه ولكنه رفض.

- يا بُني إن الأمر هذا مسؤولية، ويكفي المرءُ خوفاً أنه سيُسأل عن أعماله وعن أهل بيته، فكيف به إذا ما صار مسؤولاً عن الناس جميعاً، وسيقف يوم القيامة بين

يدي الله ليسألهم عنه، أتحسبُ أن الأمر تشريف وأبهة؟
لا والله إنه تكليف ومسؤولية، وقد أردتُ أن ألقِيها في
رقبة عمر بن الخطاب لأنني كنتُ أراه أقوى مني عليها،
ولكنه رفض، ووالله لو قبلها كنتُ أول من بايعه.

- وانظُرْ لحب عمر بن الخطاب لك يا خليفة رسول الله
حين قال لك: لئن أتقدم فتضرب عنقي أحب إليَّ من
أن أأمر على قوم فيهم أبو بكر.

- ومن كعمر، ذلك صاحب الأمين، والخل الوفي،
والنقي الذي لا تنسيه قوته أن يرجع إلى الحق.

- ما أعرفه أن النبي ﷺ لم يُسمَّ أحداً ليكون خليفة بعده
ولكنه ترك إشارات كثيرة تدل على أنه كان يريدك أن
تكون الخليفة بعده، فهل لك أن تحدثني عن هذه
الإشارات؟

- لك هذا يا بُني، ولكن قبل أن أحدثك عن الإشارات
الخفية التي تتضمن معنى أن النبي ﷺ قد أراد أن يكتب
لي وصيته بالأمر. ففي مرضه الذي مات فيه قال لابنتي
عائشة: ادعي لي أباك وأخاك، حتى أكتب كتاباً، فإني
أخاف أن يتمنى متمنٍ، ويقول قائل: أنا أولى، ويأبى
الله والمؤمنون إلا أبا بكر.

- فلماذا لم يكتب إذاً؟

- اشتدَّ عليه المرض بعدها، وما كانت عائشة ولا أحد يحسبُ أن النبي ﷺ سيموت في مرضه هذا، فلم ترد أن تشق عليه في مرضه، وأرادت أن تترث حتى يستعيد عافيته، ولكن قدر الله أمضى، لتكون لي الخلافة بالبيعة والإجماع وليس بالوصية.
- فأيهما كان أحبُّ إليك؟
- الأحبُّ إليَّ ما اختاره الله لي، فلو أراد الله أن تكون لي الخلافة بالوصية كانت أحب إليَّ من أن تكون بالبيعة والإجماع اللذين لا بد منهما بعد الوصية أساساً، أما وقد شاء الله أن تكون الخلافة بيعة وإجماعاً فإني أحبُّ ما ارتضاه الله سبحانه لي.
- يا لقلبك وإيمانك يا أبا بكر!
- يا بُني إن الإيمان كله في الرضا، فماذا يبقى من إيمان المرء لو لم يرَضَ على قضاء الله وقدره خيراً كان أم شراً.
- فماذا عن الإشارات الخفية يا خليفة رسول الله؟
- هي كثيرة وأولها أنه عهدَ إليَّ أن أصلي بالمسلمين في مرضه، وعندما طلبوا من عمر بن الخطاب وأجاب، رفض النبي ﷺ الأمر رفضاً قاطعاً. وعندما طلب من عائشة أن تطلب مني أن أصلي بالناس. وناقشته في الأمر، فرفض، ثم استعانت بحفصة لتناقشه أيضاً فرفض، دلَّ هذا دلالة لا شك فيها أنه أرادني أن أخلفه في المسلمين.

- فلماذا لم ينتبه الأنصار إلى هذا الأمر؟
- يا بُني عندما تنزل الخطوب بالناس فإنهم ينشغلون بها، والمصائب ومدلهفات الأمور تجعل الناس ينسون بعض ما كان من شأنهم أن يتذكروه وفي الأمر سعة.
- حسناً فهمتُ، فماذا عن باقي الإشارات؟
- أتت امرأة إلى النبي ﷺ تطلبُ عطية ولم يكن عنده مال، فأمرها أن ترجع إليه، فقالت له: إن جئتُ ولم أجِدك؟ كأنها تريدُ أن تقول فربما عدتُ ولم أجِدك على قيد الحياة.
- فقال لها: إن لم تجديني فأتي أبا بكر.
- يا لها من إشارة فهل هناك غيرها؟
- أجل هناك غيرها، كنا يوماً جلوساً عند النبي ﷺ فقال لنا: إني لا أدري ما قدر بقائي فيكم، فاقتدوا بالذين من بعدي، وأشار إليّ وإلى عمر بن الخطاب، وتمسكوا بعهد عمّار، وما حدثكم ابن مسعود فصّدّقوه.
- وهذه إشارة جميلة أيضاً، فهل هناك غيرها؟
- هناك غيرها أيضاً.
- فحدثني عنها.
- كنا جلوساً مع النبي ﷺ في المسجد إذ قال يُحدّثنا عن رؤيا رآها: بينما أنا نائم رأيتُ أني أنزعُ على حوضي أسقي الناس، فجاءني أبو بكر فأخذ الدلو من يدي ليرychني، فنزع الدلوين وفي نزعہ ضعف واللہ يغفر

له، فجاء ابن الخطاب فأخذ منه، فلم أر نزع رجلٍ قط أقوى منه حتى تولى الناس، والحوض ملآن يتفجر. - هذه أيضاً إشارة لك أنك ستخلفه، والدلو كما يظهر من الرؤيا هو الخلافة، والحكم، وأخذك الدلو منه يعني أخذك الحكم والمنصب، وأخذ عمر الدلو بعدك. أيضاً يدل أنه سيكون خليفتك.

- هذا صحيح يا بُني، وهنا تكمن الإشارة بالخلافة. - فلماذا قال النبي ﷺ أنك نزعت دلوين، وفي نزعتك ضعف، بينما كان نزع عمر للدلالة قوياً شديداً حتى عمّ الماء الذي نزعه الناس جميعاً وامتلاً الحوض؟ - وهذه أيضاً إشارة يا بُني، فالضعف في نزعي للماء دلالة على قصر مدة حكمي، وعجلة موتي، وانشغالي بحروب الردة والفتن الداخلية عند الفتوحات الخارجية، وقد وطأت الأمر لعمر، فجاء بعدي ليجد جبهة داخلية مستقرة ساعدته في أن يتجه للفتوحات الخارجية. - تأويل رهيب يا خليفة رسول الله. - بارك الله بك يا بُني.

- ولكن عندي سؤال لو أذنت لي؟ - تفضّل يا بُني. - ما دامت الإشارات كثيرة فلماذا غابت عن الناس أول الأمر؟

- لم تكن هذه الحوادث في مجلس واحد، وما كان جميع الناس يحضرون مجلس النبي ﷺ كل الوقت، فعلى سبيل المثال كان بيتي في السَّرح وغبتُ عن بعض مجالس النبي ﷺ، فقال أشياء لم أشهدها، وكان عمر بن الخطاب يتناوب هو وأخ له على العمل والجلوس في مجلس النبي ﷺ، بحيثُ يعملُ عمر يوماً وينزل أخاه إلى مجلس النبي ﷺ، فإذا كان المساء أخبره بما حصل في مجلس النبي ﷺ، فإذا كان الغد جاء عمر إلى مجلس النبي ﷺ وسمع وشاهد، بينما يبقى أخوه في العمل وهكذا...

وأيضاً الأنصار كانت لهم ضياع وبساتين يعملون على زراعتها، وقطف ثمرها، فلا بد أن يفوتهم بعض ما يدور في مجلس النبي ﷺ. والمهاجرون وإن لم يكن لهم ضياع وبساتين مقارنة بأهل المدينة فإنهم كانوا يعملون في السوق، وهذا العمل يأخذ منهم وقتاً، ويشغلهم عن حضور بعض مجالس النبي ﷺ. لهذا لا يوجد أحد أحاط بكل شيء.

- حسناً فهمتُ يا خليفة رسول الله.
- فهل عندك شيء بعد تسأل عنه؟
- في هذا المجال لا، ولكن هل يأذن خليفة رسول الله أن نتقل إلى مجال آخر؟

- لك هذا يا بُني، فسل عما بدا لك.
- أردتُ أن أسألك عن خطبتك يوم توليت الخلافة.
- فعن أي شيء منها تريد أن تسأل؟
- ألا ترى أنها قصيرة نسبياً، أعني أنها أول بيان سياسي من الخليفة الجديد إلى الأمة، وقد ألفنا في أيامنا أن عريف حفل من احتفالاتنا اليوم إذا أراد أن يمهد للمتكلم الذي سيأتي بعده لا يكاد ينتهي، وإذا صعد المتكلم المنبر لا تطيب نفسه المغادرة؟

- العبرة ليست في طول الخطبة ولا قصرها وإنما العبرة في أن تؤدي الغرض منها، وتقوم بإيصال الأفكار واضحة جلية، على أن من عادة العرب أن لا تطيل في الخطبة، لأن البلاغة في الإيجاز هذا أولاً، وثانياً إن الكلام يُنسى بعضه بعضاً فإطالة الخطيب ولفه ودورانه يجعل السامع ينسى بعضاً مما قال آنفاً، بعكس إذا كان الكلام قليلاً ومرتبطاً بالفكرة فإنه يرسخ في ذهنه، والأهم من ذلك قول النبي ﷺ: «قصر خطبة الرجل وطول صلاته مِئنة من فقهه».

- فهمتُ يا خليفة رسول الله، ولكن أردتُ أن أسأل أليس من المفترض أن تكون الخطبة الأولى أو البيان السياسي الأول لك إيضاحاً لمعالم سياستك في الحكم؟
- بلى، هكذا كانت.

- فهل يأذن خليفة رسول الله أن يحدثني عن ملامح سياسته في الحكم التي ضمنها في بيانه السياسي الأول؟
- لك هذا يا بُني، فاسمع.
- إني مُصغٍ فتفضل.

- عندما قلتُ: أطيعوني ما أبطعُ الله ورسوله، فإن عصيتُ الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم. فإني بهذا أخبر الناس بمصادر التشريع في الدولة التي سأحكمها. وهما كتاب الله تعالى وسنة رسوله. فالقرآن هو المصدر الأول من مصادر التشريع الذي يحتوي الأحكام الشرعية التي تُنظم كل مناحي الحياة. أما السنة المطهرة فهي المصدر الثاني من مصادر التشريع الذي يستمد منه الدستور الإسلامي رافدين أساسيين. الأول الأحكام التي لم ترد في القرآن وجاءت بها السنة المطهرة. فبعض أحكام القرآن جاءت مجملة فجاءت السنة النبوية لتفصل هذه الأحكام سواء في العبادات أو المعاملات، فالله تعالى مثلاً أمرنا في القرآن الكريم بإقامة الصلاة، ولكنه لم يخبرنا بعدد الصلوات، ولا أوقاتها، ولا ركعاتها، ولا ما الذي نقوله فيها، فجاءت السنة النبوية شارحة ومفصلة.
- شرح جميل ومفصل يا خليفة رسول الله، فماذا قلتُ في خطبتك عن ملامح سياستك غير مصادر التشريع؟

- عندما قلتُ: فإن أحسنتُ فأعينوني وإن أسأتُ فقوموني.
فإنني أرسى مبدأ مراقبة عمل الحاكم ومحاسبته.
أخبرتهم أنني إنسان، وأن الخطأ مني وارد، فقد مضى
زمن الأنبياء، فلا عصمة لأحد من الناس، وأنا واحد
منهم يصدر مني الخطأ أيضاً. كنتُ أنظر إلى الأمة على
أنها شريك في الحكم، لا مجرد تابع منقاد، ففي نهاية
المطاف أنا موظف عند الناس أرعى شؤونهم، وأدير
أمرهم، لا هم موظفون عندي. فلهم عليّ حقوق
ولي عليهم واجبات، ومن واجبي عليهم أن يطيعوني
بالمعروف، ولا آكل شيئاً من مالهم دون وجه حق، فإن
أمرتُ بالمعروف كان واجباً عليهم طاعتي، وإن أخطأتُ
كان واجباً عليهم أن ينصحوالي ويقوموني. ألا ترى أنه
إذا استأجر ثري عاملاً على بستان له فراه قد أخطأ في
أمر من أمور عمله، أرشده إلى الصواب، والأمة هي ذاك
الثري صاحب البستان وأنا ذاك العامل الذي استأجروه
ليقوم بإصلاحه.

- يا لهذا الفقه السياسي منك يا خليفة رسول الله، ويا
لاحترام الأمة.

- يا بُني هذا ليس فقهاً شخصياً، وإنه شرع الله الذي أعطى
الحاكم حرمة وتبجيلاً ما دام يأمر الناس بالمعروف،
وأعطى الأمة حق المحاسبة للحاكم إن هو أخطأ في
بعض أمور الحكم.

- فماذا قلتَ في خطبتك أيضاً وترى أنه يرسم الملامح السياسية لعهدك؟

- عندما قلتُ الضعيف فيكم قوي عندي حتى أُرجع عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. فقد كنتُ أُرسي مبدأ العدل والمساواة بين الناس.

فالناس أمام القانون سواء، فالضعيف صاحب الحق قوي بالدولة التي تسخر كل طاقاتها وإمكاناتها لتعيد إليه حقه، والقوي الظالم ضعيف أمام هيئة الدولة المستنفرة بكل أجهزتها لتقتص منه، وتأخذ حقوق الناس التي غصبها بقوته.

- فأَي شيء غير هذا المبدأ الجميل في خطبتك؟
- عندما قلتُ: الصدق أمانة والكذب خيانة. فقد كنتُ أُرسي مبدأ الصدق في التعامل بين الحاكم والرعية، فلستُ أدبر أمراً وأخبر الرعية عكسه. ولا أريد من الرعية أن تهز رأسها بالموافقة أمامي وبالمعارضة وراء ظهري. أردتُ أن أُرسي مبدأ الثقة. وأعزز الاحترام المتبادل بدل الخوف والشك والريبة، فلستُ أقول إلا صدقاً، ولستُ أفعل غير ما أقول، بالمقابل لا أريد من الرعية أكثر من أن تحدثني بشكوكها، وتفتحنني بما أشكل عليها من قراراتي، فهذا من شأنه أن يبنني جبهة داخلية قوية لا يمكن هزيمتها، فالدولة التي تنهار أمام

الأعداء هي في الحقيقة دولة منهارة من الداخل لم يفعل الأعداء أكثر من إكمال المشهد الأخير في هذا الإنهيار، القلاع الحصينة لا تسقط إلا من الداخل، وقد أردتُ دولة حصينة متماسكة من الداخل، تليق بالمهام الجسام التي عليها أن تقوم بها وأهمها تعييد الناس بر بهم .

- يا للفقهِ السياسي الراسخ يا خليفة رسول الله .

- بارك الله بك يا بُني .

- فماذا تضمّنت خطبتك بعد من خطوط عريضة لسياستك في الحكم؟

- عندما قلتُ: ما ترك قوم الجهاد في سبيل الله إلا خذلهم الله بالذل، فإنني أعلنُ أن هوية هذه الأمة هي العزة والكرامة، وأنا نأخذ حقنا بأيدينا ولا نستجديه من الآخرين. نحن أمة لا تظلم ولا تعتدي، وإنما ننادي بالتراحم والتعايش، ولكن تعايش القوي لا تأقلم الضعيف الذي يحسبه من استمرأ الذل وهانت عليه كرامته أنه تعايش .

- صدقتُ يا خليفة رسول الله، فماذا تضمّنت خطبتك بعد؟

- عندما قلتُ: ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمّهم الله بالبلاء. فقد كنتُ أعلن الحرب على رزايا الأخلاق،

وعلى الزنا والربى والفجور، فنحن أمة لها رسالة، هذه الرسالة النقية التي جاءت خاتمة الرسالات، ونبينا ﷺ خاتم الرسل، إنما هي للناس كافة، وإن بدأت فينا نحن وأمرنا بتبليغها للناس كافة، فكل مسلم هو نائب عن النبي ﷺ، ومأمور بالتبليغ عنه بقدر استطاعته، وبحجم إمكانياته وقدراته، فلا بد من إصلاح أفراد الأمة ليكونوا جديرين بأن يكونوا نواباً للنبي ﷺ. وعندما يصلح الأفراد، تصلح الأمة. فما الأمة إلا مجموع أفرادها. وواجب الدولة أن تزيل كل العوائق التي تحول بين الناس وبين صلاح دينهم. فكيف ستعد مجاهداً في سبيل الله في مجتمع غارق بالفاحشة والزنا والفجور. وكيف ستحمل الرحمة والعدل للناس في مجتمع لا يرحم ولا يعدل بين أفراده.

- يا لك من عبقرى يا خليفة رسول الله.
- بارك الله بك يا بُني، والآن أخبرني بعد أن انتهينا من خطبتي يوم توليتُ الخلافة، هل عندك شيء تسأل عنه؟
- أردتُ أن أسأل عن أول قرار سياسي كبير اتخذته بعد توليك الخلافة بأيام وأعني به إنفاذ جيش أسامة.

- كانت الجزيرة العربية تجاور دولتين قويتين هما فارس والروم، وكان العرب في العراق يتبعون الفرس، والعرب

في الشام وشمال الجزيرة يتبعون للروم. ولأن النبي ﷺ جاء للناس كافة، ولدعوة البشر جميعاً إلى عبادة الله الواحد الأحد، فقد راسل كسرى عظيم فارس، وهرقل عظيم الروم ودعاهما إلى الإسلام لكنهما استكبرا وأثرا الحياة الدنيا على الآخرة.

وكان العرب في الجزيرة العربية قبل الإسلام ينظرون إلى فارس والروم نظرة هيبة لما لهما من قوة عسكرية وإقتصادية، وتقدم في الحضارة والعمران، لهذا كانت خطة النبي ﷺ أن يكسر شيئاً من هذه الهيبة في قلوب العرب تجاه فارس والروم ممهداً بذلك للمعارك الكبرى التي جاءت فيما بعد.

ففي العام الثامن من الهجرة الشريفة أرسل النبي ﷺ جيشاً إلى شمال الجزيرة العربية، واقتتل هذا الجيش مع جيش الروم ومن معهم من نصارى العرب في غزوة مؤتة التي أدت إلى استشهاد قادة الجيش الثلاثة الذين عينهم النبي ﷺ تبعاً، زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبدالله بن رواحة، إلى أن تولى القيادة خالد بن الوليد الذي رسم خطة انسحاب محكمة وعاد بالجيش إلى المدينة، ولم يعجب الناس في المدينة هذا الانسحاب، فقالوا للمجاهدين العائدين أنتم الفرار أي الهاربون.

فقال النبي ﷺ: بل هم الكرّار أي المهاجمون.

وكانت هذه أول مواجهة مباشرة بيننا وبين الروم. وفي العام التاسع للهجرة النبوية الشريفة خرج النبي ﷺ على رأس الجيش بنا إلى تبوك، ولكننا لم نشتبك مع الروم، ولا مع القبائل التي خضعت لحكمهم. وأثر حكام المناطق التي دخلناها الصلح والجزية. فمكثنا في تبوك عشرين ليلة ثم عدنا إلى المدينة. وكانت هذه ثاني خطوة في كسر هيبة الروم من نفوس العرب.

أما عن جيش أسامة فكنْتُ قد أخبرتك أن النبي ﷺ قد جعل أسامة على رأس جيش لقتال الروم، ولكنّه مات ﷺ والجيش معسكر على مشارف المدينة لم يغادرها.

وبقي الجيش مرابطاً مكانه حتى تمّت بيعتي، وصرتُ خليفةً للمسلمين، وبعد ثلاثة أيام أصدرتُ أمري إلى أسامة أن يمضي بالجيش إلى حيث أمره النبي ﷺ يوم قال له: سرّ إلى موضع مقتل أبيك، فأوطئهم الخيل، فقد وليتُك هذا الجيش.

فقال أسامة لعمر بن الخطاب: إرجعْ إلى خليفة رسول الله ﷺ فاستأذنه أن يأذن لي أن أرجع بالناس، فإنّ معي وجوه الناس، ولا آمن على أبي بكر والناس في المدينة أن يغير عليهم أحدٌ من المشركين.

وقالتُ الأنصار لعمر: وقلْ لأبي بكر إن أباي إلا أن نمضي فأبلغه عنا، واطلبْ إليه أن يولي أمرنا رجلاً أكبر سنّاً من أسامة.

- فماذا حدث بعد ذلك؟

- جاء عمر إليّ وقال: يا خليفة رسول الله إن العرب قد ارتدت على أعقابها كفاراً كما قد علمت، وأنت تريد أن تُنفذ جيش أسامة؟ وفي جيش أسامة جماعة العرب وأبطال الناس فلو حبسته عندك لتقويت به على من ارتدّ من هؤلاء العرب.

فقلت له: والله لو علمت أن السباع تجر برجلي إن لم أردّه ما رددته، ولا حللت لواء عقده رسول الله ﷺ!
فقال لي عمر: إن الأنصار أمروني أن أبلغك، وهم يطلبون أن تولي أمرهم رجلاً أكبر سنّاً من أسامة.

فوثبت إلى عمر، وأخذت بلحيته وقلت له: ثكلتك أمك، وعدمتك يا ابن الخطاب، استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أنزعه؟!

فعاد عمر إلى أسامة والناس في المعسكر، فقالوا له: ماذا صنعت؟

فقال: امضوا، ثكلتكم أمهاتكم، ما لقيت في سييلكم من خليفة رسول الله.

- فماذا حدث بعد ذلك يا خليفة رسول الله؟

- أمرت منادياً أن ينادي في طرقات المدينة: ليتم بعث أسامة، ألا لا يقيّن بالمدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره.

ثم قمتُ في الناس خطيباً، فحمدتُ الله وأثنتُ عليه ثم قلتُ: يا أيها الناس إني وليتُ هذا الأمر وأنا له كاره. والله لوددتُ لو أن بعضكم كفانيه، وإنما أنا مثلكم، وإني لا أدري لعلكم ستكلفوني ما كان رسول الله ﷺ يطيق، إن الله اصطفى محمداً على العالمين، وعصمه من الآفات، وإنما أنا متبع ولست بمبتدع ولست بخير من أحدكم، فراعوني، فإن رأيتموني استقمتم فبايعوني، وإن رأيتموني زغت فقوموني، وإن رسول الله ﷺ قد قبض وليس أحد من هذه الأمة يطلبه بمظلمة ضربة سوطٍ فما دونها، ألا وإن لي شيطاناً يعتريني، فإذا أتاني فاجتنبوني لا أؤثر في أشعاركم وأبشاركم.

- وماذا فعلتَ بعد ذلك؟

- بعد ذلك ذهبتُ إلى معسكر جيش أسامة، وودعتهم وأنا أمشي، وأسامة على فرسه، فقال لي: يا خليفة رسول الله لتركبنَّ أو لأنزلنَّ.

فقلتُ له: والله لا تنزل، والله لا أركب، وما عليَّ أن أغبرَ قدميَّ في سبيل الله ساعة، فإن للغازي بكل خطوة يخطوها سبعمئة حسنة تكتب له، وسبعمئة درجة تُرفع له. ولكن إن رأيتَ أن تعينني بعمر فافعل.

فأذن لعمر أن يبقى معي في المدينة.

- وهل أوصيتَ الجيش بشيء يا خليفة رسول الله؟

- بالطبع قد فعلتُ.

- فما كانت وصيتك لهم؟

- قلتُ لهم: يا أيها الناس قفوا أوصكم بعشرٍ، فاحفظوها عني: لا تخونوا، ولا تَغْلُوا، ولا تغدروا، ولا تُمَثِّلُوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرّون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيءٍ فاذكروا اسم الله عليها، وتلقون قوماً قد فحسوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقا. اندفعوا باسم الله.

- وكم غاب أسامة بجيشه عن المدينة، وما كانت نتيجة المعركة التي خاضها؟

- غاب أسامة عن المدينة أربعين ليلةً، قاتل خلالها وانتصر بفضل الله وعاد إلينا بالغنائم.

- وما كان أثر خروج جيش أسامة على العرب؟

- كان أسامة لا يمرُّ بجيشه على قبيلة كانت تُحدِّثُ نفسها بالردة إلا قالوا: لولا أن لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم، وإننا لندعهم حتى يلقوا الروم.

فلما لقي جيش أسامة الروم، وقتلوهم وانتصروا عليهم، ثبت أولئك على دينهم.

- والآن هل يأذن خليفة رسول الله أن أسأله بعض ما حدثني عنه؟

- تفضل يا بُني سَلْ ما بدا لك.

- في كلام عمر بن الخطاب وجهة نظر حول إبقاء جيش أسامة في المدينة، فقد ارتدت العرب، ومن البديهي أن تصبح المدينة مقصداً لهم، وقد طابق رأي عمر بن الخطاب رأي أسامة بن زيد قائد الجيش نفسه، ألم يكن إبقاء الجيش في المدينة أسلم من إنفاذه لقتال عدو بعيد؟

- طبعاً في كلام عمر بن الخطاب وجهة نظر سليمة، ومن مثل عمر لا يُتهم في رأيه، ثم ولو كان رأيه خاطئاً فما نشك في نيته وحبه لله ورسوله وللإسلام، فهو حين أعطى رأيه إنما أعطاه لما رأى أنه الأنفع نظراً للظرف السياسي الطارئ الذي لم يكن بالحسبان، ولكن يبدو يا بُني أنك لم تنتبه إلى نقطة جوهرية في الموضوع.

- وما هي يا خليفة رسول الله؟

- لو كنتُ أنا الذي عزمْتُ على إرسال جيش أسامة في هذه الظروف والخطرة والاستثنائية لقبلْتُ رأي عمر بن الخطاب، أو على الأقل لقلبتُه في عقلي، ولكن هذا الجيش تشكَّل بأمر النبي ﷺ، وهذا اللواء قد عقده بيده، فكيف أحلُّ لواء عقده النبي ﷺ

- أَلَسْتَ الخليفة، وَلَكَ الاجتهاد في الظروف المتغيرة؟
- بلى أنا كذلك، ولكنني متبع لا مبتدع، ولا أجتهدُ حيث قضى النبي ﷺ الأمر، وأن آتي يوم القيامة فيُقال هذا أبو بكر الذي قُتل لأنه أنفذ جيشاً أمره النبي ﷺ أن يمضي ولم يُبقه في المدينة ليحميه أحب إليَّ من أن يُقال هذا أبو بكر الذي سَلِمَ لأنه حلَّ لواءَ عقده النبي ﷺ.
- لا أحد يُشبهك في اتباعك يا أبا بكر، لا أحد يُشبهك!
- بارك الله بك يا بُني.
- ولكن عندي سؤال آخر.
- وما هو؟
- أَلَمْ يكن في كلام الأنصار وجهة نظرٍ أيضاً في أن تغزل أسامة بن زيد وتُعَيِّن مكانه من هو أكبر سناً منه؟
- آية وجهة نظرٍ هذه في أن أعزل رجلاً عيَّنه النبي ﷺ على قيادة الجيش، إني لو فعلتُ فكأنني أتهم النبي ﷺ بأنه أخطأ في تولية أسامة والعياذ بالله. ثم إن حجة أن أسامة صغير في السن ليست جديدة فقد قيلت في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وقد ردَّ عليها بنفسه حين قال: إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وأيم الله إنه كان خليقاً للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إليَّ، وإنَّ هذا لمن أحب الناس إليَّ بعده.
- فالنبي ﷺ لو يولُّ أسامة لحبّه إياه فقط، وإنما ولاه لأنه جدير بالإمارة، وأي قول غير هذا اتهام مبطن للنبي ﷺ بأنه لم يكن

يضع الرجل المناسب في المكان المناسب، أو كان يُقدّم الحُبَّ في تولية الناس للمناصب على الكفاءة، فأَي إيمان يبقَى للمرء إن اعتقد هذا، ثم إن ما حدث بعد ذلك من انتصار أسامة لدليل أنه كان جديراً بقيادته الجيش على صغر سنه، وهذا من فقه النبي ﷺ في استعمال الشباب إذا رأى منهم موهبة وقدرة، فالعبرة ليست في السن، فبرأيك أيهما أنفع للجيش شاب صغير عنده الخبرة بالحرب، أم رجل متقدم في السن لا يعرف منها شيئاً؟ - بالطبع الشاب الذي لديه خبرة بالحرب.

- وهذا ما فعله النبي ﷺ، وقد اتبعته في فعله، وما كان لي أن أعزل قائداً عيّنه النبي ﷺ.

- ألم أقل لك أنه لا يُشبهك أحد في اتباعك؟

- هذا من حُسن ظنك يا بُني.

- فإن لم تكن أنت أهلاً لحسن الظن فمن عساه يكون؟

- بارك الله بك، فهل عندك شيء تسأل عنه بعد؟

- أجل عندي، أردتُ أن أسألك ماذا قصدتَ بقولك: إنَّ

لي شيطاناً يعتريني فإذا أتاني فاجتنبوني لا أوثر في أشعاركم وأبشاركم؟

- أردتُ أن أقول للناس أني نهاية المطاف بشر، ولكل

إنسان طبع، ومن طباعي أني في مواقف ضيقة أغضبُ،

وقد لا أملكُ زمام نفسي حينها، فطلبتُ منهم أن لا

يناقشوني وقتها، خشية أن أقول لأحدهم كلاماً لا أريدُ

أن أقوله، فإني لا أريدُ أن يكون لأحد من المسلمين

مظلمة عندي ولو كانت كلمة جارحة قلتها في ساعة
غضب تعتريني.

- تخشى حتى أن تجرح أحداً بكلمة؟
- ومالي لا أخشى هذا؟ يا بُنيَّ إن الناس قلوب وكرامات،
وجرح كرامة إنسان، وكسر خاطره وقلبه بكلمة لهيَ
عظيمة عند الله، فكما أن جبر الخواطر عبادة، فإن
الحرص على عدم كسرها من الأساس عبادة أيضاً!
- أتعت من بعدك يا أبا بكر، فهل نكمل؟
- تفضل يا بُني.

- أعجبني أدب أسامة معك إذ أراد أن ينزل عن فرسه
لتركب، فأنت الخليفة وقد أراد أن يُنزلكَ منزلك، فلماذا
رفضت أن ينزل وتركب؟
- والله إن أسامة كان سمحاً مؤدباً، وأكبرت منه أنه لم
يرض أن يركب هو بينما أمشي أنا، ولكنني رفضت أن
ينزل لأركب مكانه لسببين:

الأول: لأنه قائد الجيش، وأردت أن أوقره أمام الناس
خصوصاً بعد ما نصحت به من عزله، فكأنني بتصرفي هذا
أقول للناس: إذا كنتُ أنا الخليفة أسيّر وقائد الجيش راكب،
فأنتم أولى بطاعته.

الثاني: كان الجيش خارجاً للجهاد وقد أردت أن أمشي
معهم قدر استطاعتي وأعبر قدمي قليلاً في سبيل الله!

- فلماذا استأذنت أسامة في إبقاء عمر بن الخطاب معك في المدينة وأنت الخليفة وهو الذي يجب أن يَأْتَمِرَ بأمرِكَ لا العكس؟

- لأنَّ عمر بن الخطاب كان قد ذهبَ في جيش أسامة في حياة النبي ﷺ، ولكن كما أخبرتك فإن الجيش كان في معسكره عند مشارف المدينة حين مات النبي ﷺ، وعندما أُعْطِيتُ الأمر للجيش بالمسير، كان عمر بن الخطاب ضمناً تحت إمارة أسامة بن زيد، فأدباً مني لم أخطئ قائد الجيش وأخذ أحد مقاتليه دون إذنه وإن كنت بالعرف السياسي القائد الأعلى للقوات المسلمة، أي قائد عمر وأسامة، ولكن الأدب مطلوب مع الناس يا بُني وإن كانوا يعملون تحت إمرتك.

- ألم أقل لك أنك أتعبت الناس من بعدك يا أبا بكر؟

- بارك الله بك يا بُني، فهل من شيء عندك بعد تسأل عنه؟
- أردتُ أن أسألك عن وصاياك للجيش، لماذا هذه الوصايا بالذات؟

- يا بُني نحن نحارب باسم الله لا باسم أهوائنا، ونعتبر الحرب في ظل الإسلام عبادة كالصلاة والصيام تماماً، لهذا نخوضها ضمن الضوابط التي حددها لنا ربنا سبحانه، وما أمرتُ الجيش إلا بوصايا كان النبي ﷺ يوصي الجيش بها.

فلا نرضى الخيانة لأننا أمة الأخلاق، ولا نغلُّ لأن السرقة من الغنائم عمل قطاع الطرق لا عمل المجاهدين في سبيل الله، ولا نُمثل في قتلى أعدائنا لأننا لسنا أمة همجية، ولا نفعل هذا بأعدائنا ولو فعلوا مثله معنا، فتنازل الناس عن أخلاقهم ليس مبرراً لنا لتتنازل عن أخلاقنا. ولا نقتل الأطفال والنساء والشيوخ فنحن لا نحارب إلا من حاربنا، ولا نقطع الشجر المثمر لأننا لسنا رعاة، ولا نعقر الدواب إلا لأكلها لأنها أرواح خلقها الله تعالى لهذا الغرض، ولا نعتدي على الآمنين في صوامعهم وإن خالفونا في الدين لأنه ليس لنا إلا دعوتهم بالمعروف، فإن أجابوا كان أجرهم وأجرنا على الله وإن رفضوا فحساب الناس جميعاً على الله.

- يا له من دين يا أبا بكر.

- صدقت، يا له من دين!

- فماذا عن ردة فعل العرب بعد وفاة النبي ﷺ؟
- لما توفي النبي ﷺ ارتدت العرب إلا مكة والمدينة والبحرين بقوا على ما كانوا عليه من الإسلام.
- يا الله، ترك الجميع دين الإسلام وعادوا إلى الوثنية.
- لا ليس هكذا يا بُني.
- وكيف إذاً؟
- لم يكن المرتدون في ردتهم على مستوى واحد وإنما كانوا فريقين:

الفريق الأول: أبقوا على الصلاة والقرآن ولكنهم منعوا الزكاة، وقالوا كنا ندفعها للنبي ﷺ وهو حي، أما وقد مات فلا ندفع أموالنا لأحد من الناس بعده

الفريق الثاني: فقد كفروا بالكلية وآمنوا بالكذابين الذين ادعوا النبوة بعد موت النبي ﷺ خصوصاً مسيلمة الكذاب، وطلحة الأسدي.

- إذاً لم يعبد المرتدون الأصنام؟
- لا يا بُني لم يعبد أحد الأصنام في جزيرة العرب.

- وماذا عن الأسود العنسي ألم يرتد أيضاً؟
- بلى ارتدَّ ولكن كان له شأن آخر غير طليحة ومسيلمة.
- وكيف هذا؟
- أما طليحة ومسيلمة فقد ادعيا النبوة بعد وفاة النبي ﷺ، وأما الأسود العنسي فكان جباراً مشعوذاً، اعتنق الإسلام، ثم ما لبث أن ارتدَّ في زمن النبي ﷺ، وادعى النبوة، واتسع سلطانه حتى حكم مناطق شاسعة في جزيرة العرب، فأرسل النبي ﷺ إلى مسلمي اليمن بقتاله، فقاتلوه وقتلوه قبل شهر من وفاة النبي ﷺ.
- حسناً فهمتُ، ولكن أخبرني ماذا فعلتَ بالمرتدين؟
- فأما الذين أرادوا منع الزكاة، فأرسلوا وفداً إلى المدينة ليقابلني، وقالوا: نؤمن بالله ونشهد أن محمداً رسول الله، ولكننا لا نعطيكم أموالنا.
- فقلتُ: والله لو منعوني عقالاً بغير كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه.
- وقلتُ لهم: ليس عندي إلا هذا. فخرجوا إلى أقوامهم يخبرونهم بقلّة عدد المسلمين في المدينة خصوصاً أن جيش أسامة لم يكن قد عاد بعد.
- فما كان رأي الصحابة في قرارك؟
- لم يكن أغلبهم يميلُ إلى رأيي، حتى أن عمر بن الخطاب قال لي: كيف تقاتلهم وقد قال النبي ﷺ: أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن

قال لا إله إلا الله فقد عصمَ مني نفسه وماله إلا بحقه،
وحسابه على الله.
فقلتُ له: والله لأقاتلنَّ من فرَّقَ بين الصلاة والزكاة، فإنَّ
الزكاة حق المال، والله لو منعوني عِناقاً/ الأنثى من أولاد
المعز لقاتلتهم على منعها!

- فمن غير عمر بن الخطاب رأى غير رأيك؟
- جادلني في رأيي كثير من كبار الصحابة كأبي عبيدة
بن الجراح وسالم مولى أبي حذيفة وسعد بن عباد
وغيرهم كثير.
- فما كانت وجهة نظرهم؟
- كانوا يرون أن اللين أولى، وأن الأرض قد زُلزلت بالردة
فما يُطاق تشيئها، وعاد عمر بن الخطاب ليقول لي: يا
خليفة رسول الله تألَّفِ الناس وارفق بهم فقلتُ له:
رجوتُ نصرتك وجئتني بخذلانك، أجبار في الجاهلية
وخوَار في الإسلام يا عمر؟! وتقول لي أن النبي ﷺ
قال: أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله،
فمن قال لا إله إلا الله فقد عصمَ مني نفسه وماله إلا
بحقِّه. ومن حقها الصلاة وإيتاء الزكاة ولو خذلني
الناس كلهم لجاهدتهم بنفسي، ولأقاتلنَّ من فرَّقَ بين
الصلاة والزكاة، وإنه قد انقطع الوحي، وتم الدين،
أينقصُ الدين وأنا حي.

- فما الذي حدث بعد ذلك؟

- شرح الله صدورهم لما شرح الله له صدري، ورأوا الحقَّ فيما أقول وأنه لو فرطنا في الزكاة ما يلبث أن لا يبقى للناس دين، كل واحد سيقول أفعلُ كذا وأتركُ كذا.
- صدقتَ يا خليفة رسول الله، والله لقد حفظَ الله بك الإسلام إذ وقفتَ يومها وقفة الأسد الضاري الذي لا يخاف في الله لومة لائم.

- بارك الله بك يا بُني.

- فما الذي حدث بعد ذلك؟

- كنتُ أعرفُ أن المرتدين سيهاجموننا في المدينة، فبعدما رجع وفدهم خائباً من عندي، جعلتُ على أنقاب المدينة فرسان المسلمين علياً والزبير وطلحة وعبد الله بن مسعود، وأخذتُ أهل المدينة إلى المسجد وقلتُ لهم: إِنَّ الأرضَ كافرة، وقد رأى وفدهم قلَّةً فينا، وإنكم لا تدرون أليلاً تُؤتون أم نهاراً، وأدناهم منكم على بريد، وقد كانوا يأملون أن نقبل منهم ونوادعهم، وقد أبينا عليهم، فاستعدوا وأعدُّوا.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- لم يمر إلا ثلاث ليالٍ حتى أغاروا على المدينة بالليل، فتصدى لهم الفرسان الذين وضعتهم على مداخل

المدينة، وأرسلوا إليَّ والقتال ناشب، فقلتُ لهم: الزموا أماكنكم، وخرجتُ ومن معي من المدينة حتى ناصرناهم وقتلنا منهم مقتلةً عظيمةً وعادوا أدراجهم خائبين.

- حدث ما كنت تخشاه إذاً.

- حدث ما كنتُ أتوقعه لا ما كنتُ أخشاه، فلا أخشى إلا

الله، وبفضل الله كنا في انتظارهم ودحرناهم.

- وما الذي حدث بعد ذلك؟

- قلتُ في نفسي الآن نُهاجِمُ ولا نُهاجَمُ، وقد علمتُ أن المرتدين قد عسكروا عند ذي القِصَّة وهو موضع مسير ليلة عن المدينة، فهيأتُ الناس وحمستهم، وسرنا إليهم ليلاً في هدوء وحذر، فوصلنا إليهم عند الفجر، وما انتبهوا إلينا إلا وقد أعملنا فيهم السيف وقتلناهم شرَّ قتلة وأظفرنا الله بهم. فازداد المسلمون ثباتاً ويقيناً أننا على الحق، وعاد بعض مانعي الزكاة إلى رشدهم، فأرسلوا إليَّ بالزكاة فاستعنا بهذه الأموال على تهيئة الجيوش، وبمقاتلتهم بعد أن منَّ الله عليهم أن عادوا إلي حياض الإسلام.

- كل هذا قبل مجيء جيش أسامة؟

- أجل يا بُني كل هذا قبل مجيء جيش أسامة.

- يا لَكَ من قائد مغوار، الرجل الأسيف الذي لم يكن يقوى على القرآن كَشَّرَ عن أنياب الأسد الكامن فيه.
- يا بُنَيَّ من قال أن الإيمان مدعاة للجُبْنِ؟
- لم أقصد هذا، ما قصدته أنه قد عُرف فيك الرقة واللين، فمن أين أتت كل هذه الشراسة؟
- لم يكن لأبي بكر أن يلين في موضع الشدَّة، ولا أن يشتدَّ في موضع اللين، لكل موقف ما يقتضي وهذا أوان الحرب، وأنا لها.
- والله إنكَ لها، فما الذي حدث بعد عودة جيش أسامة؟

- عاد أسامة بن زيد بجيشه ونحن نريدُ أن نخرج إلى الربذة وهي موضع يبعد عن المدينة ثلاثة أميال، كان المرتدون قد جمعوا ما تبقى منهم فيه، فقلتُ لهم: استريحوا، فأنتم متعبون من السَّفر، وخرجتُ مع الجيش، فقال لي المسلمون: يا خليفة رسول الله، إنكَ إن تُصَبِّ لم يكن للناس نظام، ومقامك على العدو أشد فابعث رجلاً فإن أُصيبَ أمَّرتَ غيره.
- نعم الرأي، فهل أخذتَ به؟

- لا والله، ما كان لي إلا أن أكون على رأس الجيش.
- يا لَكَ من صنيدي يا أبا بكر، فما الذي حدث بعدها؟
- جاء إليَّ علي بن أبي طالب وقال لي: يا أبا بكر، أقول لك ما قاله لك النبي ﷺ يوم أحد: إغمد سيفك ولا

تفجعنا بنفسك، وارجعْ إلى المدينة فوالله لئن أُصَبْنَا
فِيكَ لَا يَكُونُ لِلْإِسْلَامِ بَعْدَكَ نِظَامٌ أَبَدًا
- صدقَ واللهِ عليّ، فماذا قلتَ له؟
- قلتُ له: واللهِ لَا أَفْعَلُ، وَلَا سَاوِيَنَّكُمْ بِنَفْسِي.
وَسَرْتُ بِهِمْ حَتَّى أَتَيْنَا الرِّبْذَةَ وَقَاتَلْنَا الْمُرْتَدِينَ عَلَى اسْمِ
اللَّهِ وَهَزَمْنَاهُمْ شَرًّا هَزِيمَةً.
- وَاللَّهِ إِنَّكَ لَنَعَمَ الْخَلِيفَةُ الْبَاسِلُ، وَإِنْ جُنُودُكَ لَنَعَمَ الْجُنُودُ
الْأَشْدَاءُ.
- وَهَكَذَا كَانُوا فَعَلَاءً.

- وماذا عن مسيلمة الكذاب، واليماة يا خليفة رسول الله؟

- كان مسيلمة الكذاب يُحدّث نفسه بادّعاء النبوة في حياة النبي ﷺ، فقد كان يبعثُ من قومه بني حنيفة من يستمع القرآن ثم يقوم بنسج أسجاع تافهة معتقداً أنه يُحاكي القرآن، ومن حماقاته التي قالها مدعياً أنها وحي أتاه من السّماء: «يا ضفدع يا ضفدعين، نقي ما تنقين، أعلاكِ في الماء وأسفلكِ في الطين، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تُكدّرين»!

ويا سبحان من يهدي ويضلُّ، فقد وجدَ كثيراً من الحمقى الذين صدّقوا أنه نبي، وبعضهم اتبعه حميّة وعصبية جاهلية، ولما سُئلوا في أمره، وقيل لهم: أنتم تعلمون أن مسيلمة كذاب.

قالوا: نعم إنه كذاب، ولكن كذاب ربيعة أحبُّ إلينا من صادق مُضر!

يعنون بصادق مُضر النبي ﷺ، يشهدون بصدقه، ولا يؤمنون بنبوته!

- فهل التقى مسيلمة الكذاب بالنبي ﷺ؟

- أجل يا بُني، لقد التقى به.

- فمتى؟ وأين؟

- في العام التاسع للهجرة الشريفة جاء بنو حنيفة ليسلموا

بين يدي النبي ﷺ، وكان من بين من جاء منهم إلى

المدينة المنورة مسيلمة الكذاب، وجعل مسيلمة يقول:

إن جعل لي محمدٌ الأمر بعده تبعته!

فأقبل النبي ﷺ وما معه إلا ثابت بن قيس بن شماس وفي

يده جريدة نخل حتى وقف عند مسيلمة وقال له: لو أنك

سألتني هذه ما أعطيتك، ولئن أدبرت ليعقرنك الله، وهذا

ثابت يجيبك عني، وإني لأحسبك الذي رأيتُ فيما أريتُ!

- وماذا قصدَ النبي ﷺ بقوله لمسيلمة الكذاب: وإني

لأحسبك الذي رأيتُ فيما أريتُ؟

- قال لنا النبي ﷺ مرةً: بينما أنا نائم أُريتُ كأنَّ في يديَّ

سوارين من ذهبٍ فأهمَّني شأنهما، فأوحى إليَّ أن

أنفخهما، فنفختهما فطارا، فأولتهما الكذابين يخرجان

بعدي: العنسي صاحب صنعاء، ومسيلمة صاحب اليمامة.

- أشهدُ أنه لرسول الله، وماذا حدثَ بعد ذلك؟

- في العام العاشر للهجرة مرضَ النبي ﷺ مرضه الذي

ماتَ فيه، فكتب إليه مسيلمة رسالة يقول فيها: من

مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، أما بعد،
فإني قد أشركتُ في الأمر معك، فلي نصف الأرض
ولك نصفها!

فاستدعى النبي ﷺ أبا بن كعب، وأملى عليه رسالةً إلى
مسيلمة قال له فيها:

من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب: أما بعد،
فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.
والسلام على من اتبع الهدى!

- ومن الذي حمل رسالة مسيلمة الكذاب إلى النبي ﷺ؟
- حملها إليه رجلان أحدهما يُقال له ابن النواحة وآخر
لا أعرفه، ولما قرأ النبي ﷺ رسالة مسيلمة الكذاب،
سألهما: وماذا تقولان أنتما؟
فقالا: نقول كما قال.

فقال لهما: أما والله لولا أن الرُّسل لا تُقتل لضربتُ
أعناقكما.

- ومن الذي حمل رسالة النبي ﷺ إلى مسيلمة الكذاب؟
- حملها حبيب بن زيد الأنصاري ابن أم عمارة، وعندما
قرأ مسيلمة الرسالة قال لحبيب: أتشهد أنه رسول الله؟
فقال له: نعم.

فقال مسيلمة: أتشهد أنني رسول الله؟!

فقال له: أنا أصمُّ لا أسمع!
فقطع مسيلمة عضواً من جسد حبيب، ثم عاد فقال له:
أتشهد أن محمداً رسول الله؟
فقال: نعم.
فقال له مسيلمة: أتشهدُ أنني رسول الله؟
فقال له: إني أصم لا أسمع!

وهكذا بقيَ يقطع منه عضواً بعد عضو ويسأله، فيشهد أن
محمداً رسول الله، ويقول له إذا سأله عما إذا كان يشهد أنه
رسول الله، فيقول إني أصم لا أسمع. حتى ارتقى شهيداً ثابتاً.

- سبحان الله، أنظر إلى الفرق بين النبي والكذاب يا خليفة
رسول الله، فأما النبي وهو الصادق رفض قتل الرسولين لأن
الرُّسل لا تقتل، أما مسيلمة وهو الكذاب فقد قتل حبيب بن
زيد ولم يُراعِ حرمة الرسل، وما تعارف عليه الناس جميعاً
بأن الرُّسل لا تقتل.

- لقد لخصتها بقولك يا بُني: هذا هو الفرق بين النبي
والكذاب!

- وما الذي حدث بعد ذلك يا خليفة رسول الله؟
- بعد وفاة النبي ﷺ استفحل امر مسيلمة في بني حنيفة،
واتبعه أكثرهم، إلا ثمامة بن أثال ومعه نفر قليل ثبتوا على أن
محمداً رسول الله، وأن مسيلمة كذاب. وكان خالد بن الوليد

قد انتهى من قتال أسد وغطفان ومالك بن نويرة، فكتبتُ إليه
أن يسير إلى الإمامة لقتال مسيلمة.

- وماذا كتبتَ له؟

- قلتُ له: إني أحمدُ الله الفرد الصمد، سِرُّ إلى الإمامة،
واتقِ الله وحده، وعليكَ بالرفق بمن معكَ من
المسلمين، كُنْ لهم كالوالد وإيّاكَ يا خالد ونخوة بني
المغيرة، فإنني قد عصيتُ فيكَ من لم أعصِهِ في شيءٍ
قط، فانظُرْ إلى بني حنيفة إذا لقيتهم إن شاء الله فإنك
لم تلقَ قومًا يُشبهون بني حنيفة كلهم عليك ولهم بلادٌ
واسعة، فإذا قدمتَ فباشر الأمر بنفسك، واجعل على
ميمنتك رجلاً وعلى يسرتك رجلاً، واجعل على خيلك
رجلاً، واستشر من معكَ من الأكابر من أصحاب النبي
ﷺ من المهاجرين والأنصار، واعرفْ لهم فضلهم، فإذا
لقيتَ القوم وهم على صفوفهم فالتهم إن شاء الله
وقد أعددتَ للأمور أقرانها، فالسهم للسهم، والسيف
للسيف، وهولُ فيهم القتل!

- يا لها من رسالة يا خليفة رسول الله، فعلى خبرة خالد وعبقريته
الحرية إلا أنك تعطيه نصائح الخبير العارف بأسرار الحرب.

- يا بُني كان والله خالد بن الوليد أسداً من أسود الله،
وكنْتُ أثق به أيما ثقة، ولكني لا أدخر نصحاً لمسلم في سلم،
فكيف في حرب والأرواح على الأكف؟

- وماذا عنيتَ بقولك لخالد: وإياك ونخوة بني المغيرة،
فإني قد عصيتُ فيكَ من لم أعصه في شيءٍ قط؟

- كان بنو المغيرة أهل حرب في الجاهلية، وكان فيهم
شجاعةٌ وإقداماً، يقتحمون الجيوش غير عابئين، وكان خالد
من فرط شجاعته وإقدامه مثلهم، بل كان أشجعهم، وكان عمر
بن الخطاب يُشير عليّ أن أعزل خالد بن الوليد لهذا السبب،
فقد كان يرى أن خالداً له شجاعة تصل حدَّ التهور، وأنه قد
يحمل المسلمين بشجاعته المفرطة هذه على ما لا يطيقون،
وكنْتُ أقول له: أما ترى أن خالداً لا يُحارب إلا وانتصر.
فيقول: هذا الذي أخشاه أن يُفتتن المسلمون به، فيقولون
إنما نتصر بخالد!

كان عمر ناصحاً أميناً، وكان يرى رأياً، وكنْتُ أرى رأياً،
وغفر الله لي وله.

- وما الذي حدث بعد ذلك يا خليفة رسول الله؟
- التقى الجيشان، وحدث بينهما قتال عظيم، مالت فيه
الكفة أول الأمر لصالح جيش مسيلمة، واستشهد خيار صحابة
النبي ﷺ كان منهم ثابت بن قيس بن شماس، وعبد الله بن
سهيل بن عمرو، وأبو دجانة، وعبد بن بشر، والطفيل بن
عمرو الدوسي.

- وماذا صنعَ خالد؟
- كان خالد إذا تلقى الضربة صمد، فسرعان ما أعاد ترتيب
الجيش، ورفع معنويات جنده، وحملوا على جيش

مسيلمة وأحدثوا فيهم مقتلةً عظيمة، فانسحبوا إلى الحديقة.

- ما هي الحديقة؟

- حصن منيع كان مسيلمة قد شيّده.

- وكيف اقتحمه جيش خالد؟

- الفضل من بعد الله يرجع للبراء بن مالك، فعندما دخل جيش مسيلمة إلى الحديقة وأغلقوا بابها المنيع، طلب البراء بن مالك من المسلمين أن يحملوه على الرماح ويلقوه من فوق السور ليفتح لهم الباب.

- يا له من استشهادي!

- هو والله كذلك، امتنعوا اول الأمر عن قبول طلبه حفاظاً على حياته، ولكنه أصرَّ على ذلك، فحملوه على الرماح وألقوه من فوق السور قرب الباب، فاشتبك مع الحراس وقتل منهم خمس عشرة رجلاً ثم فتح الباب، ودخل الجيش إلى الحديقة، وأعملوا في جيش مسيلمة السيف وأبادوهم.

- وما كان مصير مسيلمة؟

- قتله وحشي بن حرب بحربته التي قتل بها سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب يوم أحد، وكان يقول بعد ذلك مشيراً إلى حربته: قتلْتُ بحربتي هذه خير الناس حمزة بن عبد المطلب، وشر الناس مسيلمة الكذاب!

- سبحان من يهدي الناس بعد ضلالة.

- سبحانه وتعالى ما أكرمه على عباده.

- وماذا عن جمع القرآن الكريم يا خليفة رسول الله؟
- توفي النبي ﷺ والقرآن الكريم لم يُجمع في مصحف واحد، وإنما كان متفرقاً في الصدور والألواح ونحوها من وسائل الكتابة، حيث لم تكن ثمة دواع في حياته ﷺ استدعت جمع القرآن في مصحف واحد.

وبعد أن توليتُ الخلافة جرت حروب الردة التي حدثتْ عنها، واستشهد فيها عدد كبير من حفظة القرآن. ثم كانت معركة اليمامة التي استشهد فيها عدد كبير من الصحابة، وكان من بينهم عدد كبير من القراء، مما دفع عمر أن يأتي ويطلب مني الإسراع في جمع القرآن وتدوينه، حتى لا يذهب القرآن بذهاب حفاظه. فقال: إن القتل قد استحرَّ / اشتدَّ وكثُر يوم اليمامة، وإنني أخشى أن يستحرَّ القتل بالقراء في المواطن، فيذهب كثير من القرآن، إلا أن تجمعه، وإنني لأرى أن تجمع القرآن.

فقلتُ لعمر: كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟

فقال: هو والله خير.

فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله صدري، ورأيت الذي رأى عمر.

فأرسلتُ إلى زيد بن ثابتٍ وعمر بن الخطاب عندي،
وقلتُ لزيد: إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك، كنتَ تكتبُ
الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه.
فقال: كيف تفعلان شيئاً لم يفعله النبي ﷺ؟
فقلتُ له: هو والله خير.

فاستثقل الأمر، ولم يزل يناقشني حتى شرح الله صدره
للذي شرح الله له صدري وصدر وعمر، فقامَ فتتبع القرآن
يجمعه من الرقاع والجريد والعُشب وصدور الرجال حتى
جمعه كله في مصحف واحد.

- بارك الله بك يا خليفة رسول الله، وبارك بوزيرك
الناصح الأمين عمر بن الخطاب، أسأل الله أن يجعل
كل حرف نقرأه اليوم في مصاحفنا في ميزانكما.
- اللهم آمين، وبارك الله بك يا بُني.

- أردتُ أن أستفسر عن أمرٍ في هذا الشأن إن أذنتَ لي.
- تفضّل، سل ما بدا لك.
- فلماذا زيد بن ثابت تحديداً يا خليفة رسول الله؟
- لأنه كان شاباً يافعاً، وهذه الصفات تؤهله للقيام بمثل
هذا العمل الصعب، كما أن الشاب لا يكون شديد
الاعتداد برأيه، فعند حصول الخلاف يسهل قبوله
النصح والتوجيه. كما أن زيدا كان معروفاً بوفرة عقله،

وهذا مما يؤهله لإتمام هذه المهمة. بالإضافة إلى أنه كان يتولى كتابة الوحي في عهد رسول الله ﷺ، فقد شاهد من أحوال القرآن ما لم يشاهده غيره. كما أنه لم يكن متهماً في دينه، فقد كان معروفاً بشدة الورع والأمانة وكمال الخلق والاستقامة في الدين. والأهم أنه كان حافظاً للقرآن الكريم عن ظهر قلب، وكان حفظه في زمن النبي ﷺ وفق العريضة الأخيرة، فقد قرأ زيد بن ثابت على رسول الله ﷺ في العام الذي توفاه الله فيه مرتين، وسُميت هذه القراءة قراءة زيد بن ثابت، لأنه كتبها لرسول الله ﷺ وقرأها عليه وشهد العريضة الأخيرة، وكان يقرئ الناس بها حتى مات.

- ونعم الاختيار يا خليفة رسول الله.

- بارك الله بك يا بُني، إنما اجتهدتُ رأيي للأسباب التي ذكرتُها لك، وقد وفقَّ الله زيدا في مهمته، وكان عند حسن ظني به.

- فما قصة شهادة خزيمة بشهادة رجلين؟

- اشترى النبي ﷺ فرساً من رجل من الأعراب، فاستتبعه رسول الله ﷺ ليعطيه ثمنه. فأسرع النبي المشي وأبطأ الأعرابي، فطفق رجال يلقون الأعرابي يساومونه على الفرس، ولا يعلمون أن رسول الله ﷺ قد ابتاعه، حتى زاد بعضهم الأعرابي في السَّوْم على ثمن الفرس،

الذي ابتاعه رسول الله ﷺ، فلما زاده نادى الأعرابي رسول الله ﷺ فقال: إن كنت مبتاعاً هذا الفرس فابتعه وإلا بعته. فأقبل عليه النبي ﷺ حين سمع قول الأعرابي وقال له: ألسنت قد ابتعته منك؟ فقال الأعرابي: لا والله ما بعته!

فقال رسول الله ﷺ: بلى قد ابتعته منك.

فطفق الناس يلوذون بالنبي وبالأعرابي وهما يتراجعان، فطفق الأعرابي يقول: هلمّ شهيداً يشهد أنّي بعته. فمن جاء من المسلمين قال للأعرابي: ويلك إنه رسول الله ﷺ لم يكن ليقول إلا حقاً. حتى جاء خزيمة بن ثابت فقال: أنا أشهد أنك قد بايعته.

فقال رسول الله ﷺ: ما حملك على الشهادة ولم تكن حاضراً؟

فقال خزيمة: صدقتك لما جئت به وعلمت أنك لا تقول إلا حقاً.

فقال رسول الله ﷺ: «من شهد له خزيمة أو شهد عليه فحسبه». فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين.

ولما جمع زيد بن ثابت المصحف كان من شروط تدوين الآية في المصحف أن يشهد اثنان من الصحابة أنهم سمعوها من فم رسول الله ﷺ. وفقد زيدُ آية كان سمعها من رسول الله ﷺ فوجدها عند خزيمة بن ثابت الأنصاري ﴿مَنْ

الْمُؤْمِنِينَ رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ
نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿١٠٧﴾
فكتبها زيد في المصحف.

- هنيئاً لخزيمة تزكية النبي ﷺ
- صدقت يا بُني، والله إنها لشهادة يُغبطُ عليها.

- والآن هل يأذن لي خليفة رسول الله أن أسأله عن بعض الأمور التي حدثت معه في خلافته بعيداً عن الحرب والقتال؟

- تفضّل يا بُني سَلْ ما بدا لك.

- كنتَ رجلاً ثرياً، وخرجتَ بمالكِ كله يوم الهجرة، فكم كان معك من المال يوم وليتَ الخلافة؟

- لم يكن معي شيء!

- وأين ذهبَ مالك؟

- علمتُ أنه لا يمكنني أن أصطحب مالي معي إلى القبر عندما أموت فجعلته يسبقني إلى هناك، وأنفقته كله في سبيل الله.

- فما آخر مالك الذي أنفقته في سبيل الله؟

- أنفقتُ آخر ما أملكُ من مالٍ يوم أمرنا النبي ﷺ أن نُجهّز جيش العُسرة.

- وما هو جيش العُسرة يا خليفة رسول الله؟

- هو الجيش الذي خرجَ إلى تبوك لقتال جيش الروم، وقد وقعتْ هذه الغزوة في شهر رجب من العام التاسع

للهجرة، وسببها الأساسي هو وصول خبر إلى النبي ﷺ أن ملك الروم وقبائل العرب التي كانت على النصرانية كانوا قد عزموا الخروج إلى المدينة لقتالنا، فأمر النبي ﷺ بتجهيز جيش المسلمين، وكنا في وقت حرو وقفر وجذب، فجذبنا بأموالنا، وخرجنا لملاقاة الروم في جيش قوامه ثلاثين ألفاً، وسرنا حتى وصلنا إلى تبوك فلم نجد أحداً من الروم أو من حلفائهم من نصارى العرب، فبقينا هناك عشرين يوماً بانتظارهم ولكن لم يتجروا على المجيء فعذبنا أدرأجنا إلى المدينة.

- أليست هذه الغزوة التي حاول فيها عمر بن الخطاب أن يسبقك في الإنفاق فيها؟

- بلى، هي كذلك.

- فما القصة يا خليفة رسول الله؟

- القصة يرويها عمر بن الخطاب فيقول: أمرنا النبي ﷺ أن نتصدق لتجهيز جيش تبوك، ووافق ذلك عندي مالا،

فقلت: اليوم أسبقُ أبا بكر! فجئتُ بنصف مالي، فقال

لي النبي ﷺ: ما أبقيت لأهلك؟

فقلت: مثله.

فأتى أبو بكر بكل ماله وهو يومها أربعة آلاف درهم، فقال

النبي ﷺ: ما أبقيت لأهلك يا أبا بكر؟

فقال: أبقيتُ لهم الله ورسوله!

فقلتُ: لا أسبقه إلى شيء أبداً!

- كل مالك يا أبا بكر؟
- كل مالي يا بُني، قلتُ لك أني كنتُ أعرفُ أني لا أستطيع أن آخذ مالي معي إلى القبر، فجعلته ينتظرنني هناك!
- تقبَّلَ الله منك أجر جهادك بنفسك ومالك يا خليفة رسول الله.

- اللهم آمين.

- فمن جَهَّزَ الجيشَ غيركما بما أنها سيرةٌ قد فُتحتُ؟
- ضربَ أثرياءُ الصحابة أروع الأمثلة يومها في الإنفاق في سبيل الله، فجاء عبد الرحمن بن عوف بنصف ماله، وجاء العباس بن عبد المطلب بمالٍ كثيرٍ، وتصدق النساء بحُلِيِّهِنَّ وذَهَبِهِنَّ، وجاء عاصم بن عديٍّ بسبعين وسقاً من تمرٍ طعاماً للجيش. وتصدق الموسرون بالأحصنة والخيول لتكون ركوباً لِمَن لا حصان عنده، أما عثمان بن عفَّان فقد فاق الجميع، فقد جَهَّزَ ثلث الجيش وحده، حتى قال النبي ﷺ: ما ضرَّ عثمان ما فعل بعد اليوم. الكل تصدَّقَ يا بُني حتى الفقراء كل بما يستطيع .

- وكيف تصدَّقَ الفقراء؟

- لَمَّا سارع أثرياءُ الصحابة بصدقاتهم لتجهيز الجيش، ورأى فقراء المسلمين ذلك، اشتاقوا أن يبذلوا ويُنفقوا،

وشاركوا الأغنياء بما يستطيعون، فجاء أبو عقيل بنصف صاع من تمر هذا كل ما استطاعه، أما عُلبة بن زيد فلم يكن عنده حتى تمر واحدة ليتصدق بها، فقال للنبي ﷺ: إنه ليس عندي ما أتصدقُ به، وإني أتصدقُ بعرضي على كل مسلمٍ بكل مظلمةٍ أصابني فيها!

- ماذا قال النبي ﷺ؟

- لما كان الغد، صعد النبي ﷺ المنبر وقال: أين المتصدق

بعرضه البارحة؟

فقام عُلبة بن زيد، فقال له النبي ﷺ: أبشِرْ، فقد قبلَ الله منك صدقتك!

- يا الله، يا لها من أمة، ويا له من جيل!

- يا بُني هؤلاء هم الذين اصطفاهم الله تعالى لصحبة نبيه .

- يا لكرم الاصطفاء، وهنيئاً لك أنك كنت سيّد هذه الصفوة.

- بارك الله بك يا بُني.

- والآن نعود إلى ما كنا به، إذا لم يكن عندك مال حين

وليتَ الخلافة؟

- كلا لم يكن عندي مال.

- فمن أين كنت تُنفقُ على عيالك؟

- عندما وليتُ الخلافة، كنتُ في أول أيامي أذهبُ إلى السوق فأتاجر بالقليل الذي يكفيني ثم أعود لأتابع أمور الناس، فلقيني مرة عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح وأنا ذاهب إلى السوق وعلى كتفي أثواب أريد أن أتاجر بها، فقالا لي: أين تريدُ يا خليفة رسول الله؟

فقلتُ: أريدُ السوق لأبيع هذه!
فقالا: تبيعُ وتتاجر وقد وليتَ أمور المسلمين؟
فقلتُ: ومن أين أطعم عيالي؟
فقالا: انطلقْ معنا حتى نفرض لك شيئاً.

فانطلقتُ معهما ففرضا لي مئتين وخمسين ديناراً في السنة، وشاةً أحلبها لأهلي، فوجدتُ أن ذلك لا يكفيني، فعدتُ إلى السوق أجنّي القليل علّه يكفيني مع ما قسموه لي من راتب.
- وما الذي حدث بعد ذلك، أعني هل بقيتَ تتاجر وأنت الخليفة؟

- جاء عمر بن الخطاب إليّ يوماً فوجد عند بابي نسوةً جالساتٍ ينتظرن عودتي لأقضي لهن حوائجهنَّ. فقال لهنَّ: ما شأنكن؟

فقلنَّ: نريدُ خليفة رسول الله لبعض أمرنا.
فانطلقَ عمر يبحثُ عني فوجدني في السوق، فأخذني من يدي وقال: تعال ها هنا.

فقلتُ: لا حاجة لي في إمارتكم، قسمتم لي ما لا يكفيني
أنا و عيالي.

فقال لي: سنزيدك.

فقلتُ: ثلاثمئة دينار وشاة.

فقال لي: لا.

فجاء علي بن أبي طالب ونحن على هذه الحال، فقال:
أعطِ خليفة رسول الله ما طلبَ فليس ذلك بالكثير.

فقال له عمر: ترى ذلك؟

فقال علي: نعم.

فقلتُ: أنتما رجلا من المهاجرين ولا أدري أيرضى بقية
المهاجرين أم لا؟

فانطلقتُ، وصعدتُ المنبر، فاجتمع عليّ الناس، فقلت
لهم: أيها الناس إن راتبي كان مئتين وخمسين ديناراً وبعض
شاة، وإنَّ عمر وعلياً كمَّا لي ثلاثمئة دينارٍ وشاة. أفرضيتُم؟
فقالوا: اللهم نعم قد رضينا!

- أنتَ الخليفة وتترك للناس أن يحددوا راتبك؟

- وما لي ألاّ أفعل؟ هي أموالهم، وأنا أقوم بأمر فيه
خدمتهم، وليس لي من مالهم سوى ما قبلوا أن يعطوني،
أليس إذا استأجرتَ عاملاً ليعمل لك عملاً ليس له من مالك
سوى ما أردتَ أن تعطيه من طيب خاطر؟
- بلى، ولكنك الخليفة.

- وإن يكن، سواء كنت الخليفة أو موظفاً بسيطاً في الدولة
فليس لي إلا راتبي الذي يحدده القانون لي.
- ولكن كان بإمكانك أن تفرض لنفسك الراتب الذي
ترضاه
- أنا أطلبُ ولهم الحق أن يقبلوا أم لا، أما أن أفرضَ فليسَ
لي أن آخذ شيئاً من أموالهم.
- أتعبت من بعدك يا أبا بكر!
- هذا هو الحق يا بُني، أتريدني أن أختتم حياتي بأن آخذ
من أموال الناس مالاً لا يرضون أن آخذه؟
- لا والله، ولكن قصدتُ أن كل المال بيدك.
- المال الذي بيدي هو لهم وليس لي، هذا أمانة عندي،
وما كنتُ لأُضيّع هذه الأمانة.
- صدقت، ما كان لأبي بكر أن يُضيّع الأمانة.

- فما خبر حلبك أغنام الناس؟
- كنتُ قبل الخلافة أحلبُ لعجائز المدينة أغنامهنَّ،
أحتسبُ بذلك الأجر عند الله، فلما وليتُ الخلافة
قالت إحداهنَّ: الآن لن يحلبَ لنا أغنامنا!
- فسمعتها، فقلتُ: لعمرى لأحلبنها لكم، وإنني لأرجو ألا
يُغيّرني ما دخلتُ فيه عن خُلُقٍ كنتُ عليه.
- وبقيتُ أحلبُ لهنَّ أغنامهنَّ.

- تحلبُ أغنام العجائز قبل الخلافة هذه نفههما، أما أن تحلبَ أغنامهنَّ وقد صرّت خليفة المسلمين. أليس في هذا انتقاصاً من قدرك؟

- من قال إنَّ خدمة الناس تُنقص من قدر المرء، على العكس يا بُني إن قدر المرء يرتفع بخدمة الناس خصوصاً المساكين الذين ليس لهم أحد إلا الله.

- أعني أنك الآن الخليفة؟

- إن كنتُ أحلبُ لهنَّ قبل الخلافة صدقةً مني، فإنني بعد الخلافة كنتُ أحلبُ لهنَّ واجباً، فهم رعيتي، والله سيسألني عنهم يوم القيامة.

- لو أنك أوكلتَ هذا الأمر لغيرك؟

- أُغلقُ باب خيرٍ فتحه الله لي، لا والله ما كان لي أن أفعل.

- يبدو أن هذا الشُّق من حديثنا سيكون عنوانه: أتعبت من بعدك يا أبا بكر!

- يا بُني، قالت العرب: سيد القوم خادمهم، وأنا لست سيد الناس، وإنما واحدٌ منهم وخادمهم.

- وماذا عن قصة العجوز العمياء؟

- انتبه عمر بن الخطاب إلى أنني أخرجُ إلى أطراف المدينة بعد صلاة الفجر، ثم أدخل إلى كوخ لساعات ثم أنصرفُ إلى بيتي، وهو لا يدري ما بداخل البيت، ولا ما أفعله هناك، ولأنه

كان يعرف ما أعمله من خيرٍ إلا سرَّ هذا البيت، قرر عمر أن يدخل إليه بعد إنصرافي منه، ليُشاهد بعينه ما الذي أفعله فيه بعد صلاة الفجر. وعندما دخل عمر إلى هذا الكوخ الصغير وجد فيه عجوزاً لا تقوى على الحركة، كما أنها كانت عمياء! فزادت حيرة عمر ودهشته، وسأل العجوز: ماذا يفعل هذا الرجل عندهم؟

فقالت له: يأتيني كل صباح ويُنظف لي البيت ويكنسه، ثم يُعِدُّ لي الطعام وينصرف دون أن يخبرني من هو! عندها قال عمر: أتعبت الخلفاء من بعدك يا أبا بكر! - قلتُ لك يا خليفة رسول الله أن حديثنا سيكون عنوانه - أتعبت من بعدك يا أبا بكر. - بارك الله بك يا بُني.

- فمن كانت هذه المرأة؟ أعني هل كان بينك وبينها قرابة؟ - لا يا بُني، ليس بيني وبينها قرابة، ولكنها عجوز عمياء قعيدة، ليس لها إلا الله، وقد علمتُ بأمرها، فقلتُ في نفسي: باب خير فتحه الله لي، فلا أستغلنه. - وقد أحسنت والله استغلاله، ولكن لماذا تقوم بالأمر بنفسك، لو كلفْتَ به أحداً غيرك يقوم به - ومن أحقُّ بالأجر مني، وأحوج له، بل أقوم به بنفسِي، ولا أَرُدُّ صدقة أَراد ربي أن يتصدقها عليَّ.

- فما قصتك مع جابر بن عبد الله. ومال البحرين يا خليفة رسول الله؟
- عندما وليت الخلافة جاءنا مال البحرين فقلت: من كانت له عِدَّة عند النبي ﷺ فليأت.
- فجاء جابر بن عبد الله فقال لي: لي عِدَّة عند النبي ﷺ.
- فقلت: وما عِدَّتكَ؟
- فقال: قد قال لي النبي ﷺ لو جاء مال البحرين لأعطيتُ هكذا وهكذا وهكذا، يشير إلى حفنة من يديه.
- فقلت له: خذ بكفيك.
- فأخذ حفنة بكفيه، ثم عدّها فإذا هي خمسمئة دينار. فقلت له: خذ مثليها، فأخذ ألفاً ومضى، ثم أعطيتُ من المال كل إنسان كان النبي ﷺ قد وعده شيئاً.
- وفيتَ إذا بعهد النبي ﷺ بعد موته؟
- فبعهد من أفي إن لم أف بعهد النبي ﷺ؟
- صدقت، فوعده أحقُّ الوعود بالوفاء.
- فهل عندك شيء تسأل عنه بعد في هذا الباب؟
- أجل ما زال عندي.
- فسل إذاً.
- هل صحيح أنك لم تَكُنْ تستعمل أهل بدر على أمور الحكم والولاية؟
- نعم هذا صحيح يا بُني.

- ولم؟
- كنتُ أرى مكانتهم وأحفظها، وأكرمهم، ولكني لم استعملهم في الحكم لأنني كرهتُ أن أدنسهم بالدنيا.
- وكيف هذا؟
- يا بُني إن الحكم في كثير من لحظاته اجتهاد، وتعامل مع الناس، وأخذ ورد، وصواب وخطأ، ولكرامة أهل بدر عندي أردتُ أن أبعدهم عن كل هذا.
- ولكنك استعملتَ عمر بن الخطاب، أعني أنه كان وزيراً لك .
- وهل يُستغنى عن عمر ورأيه، بل إنني استأذنتُ أسامة يوم كان عمر في جيشه أن يتركه عندي لأستعين به، عمر بن الخطاب ليس كسائر الناس، فلا يسدُّ أحد مكانه، وما لا يتم به الواجب إلا به فهو واجب، أما ولاية البلدان، والخراج وجمع الزكاة فهي قصة أخرى.
- حسناً فهمتُ يا خليفة رسول الله، فما قصة سؤالك الناس عن واليك على مكة؟
- في أول عام لي في الخلافة كلّفتُ عمر بن الخطاب أن يحجَّ بالناس. وفي العام التالي حججتُ بهم أنا، فلما دخلتُ مكة سألتُ أهلها: هل من أحدٍ يشتكي مظلمة؟ فما جاءني أحدٌ، وأثنى الناس على واليهم.
- فمن كان واليك على مكة يومها؟
- كان الوالي هو عتّاب بن أُسيد.

- ألم تكن تثق به؟
- لو لم أكن أثق به ما وليته.
- فلماذا تسأل عنه الناس إذا؟
- من واجبي أن أتابع أعمال الولاية، وأسأل الناس مباشرة عنهم، فأنا المسؤول أمام الله إن حدث ظلم على أحد من رعيتي.
- صدقت يا خليفة رسول الله.
- بارك الله بك يا بُني، فهل عندك شيء تسأل عنه بعد؟
- أجل ما زال عندي ما أسألك عنه.
- فهاته إذاً.
- ما قصة المرأة التي نذرت أن تحج صامته؟
- هذه المرأة من أحسن يقال لها زينب، رأيتها في الحج لا تتكلم، فقلت: ما لها لا تتكلم؟
- فقالت: نذرت أن تحج صامته.
- فقلتُ لها: تكلمي. فإنَّ هذا لا يحلُّ، وهذا من عمل الجاهلية.
- فتكلمتُ فقالت لي: من أنت؟
- قلتُ: امرؤ من المهاجرين.
- قالت: أي المهاجرين؟
- قلتُ: من قريش.
- فقالت: من أي قريش؟
- قلتُ: إنك لسؤولة! أنا أبو بكر.

فقالت: ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح الذي جاء به الله بعد الجاهلية؟

قلتُ: بقاؤكم عليه ما استقامت أئمتكم.

قالتُ: وما الأئمة؟

قلتُ: أما كان لقومك رؤوس وأشراف يأمرونهم فيطيعونهم؟ قالت: بلى.

قلتُ: فهم أولئك الناس.

- فلماذا لم تخبرها باسمك أول الأمر؟

- وما الحاجة إلى ذلك؟

- كانت ستسمع منك فوراً دون أن تناقشك.

- كان غرضي أن تترك ما نذرتُ من نذرٍ باطل وليس أن أتباهى أنني خليفة المسلمين.

- فماذا قصدت بقولك: بقاؤكم عليه ما استقامت أئمتكم؟

- قصدتُ أن الناس بحكامهم، فإذا التزمَ الحُكام بـشرع الله، وطبقوه على أنفسهم، وأعلوا من شأنه تبعتهُم الرعية في ذلك، ومتى ما تركوا شرع الله وسُنّة نبيه كانت الرعية بهذا الأمر أترك منهم له!

- فما قصة قولك: دعاؤه أشد من سرقته؟

- جاء إليَّ رجلٌ من أهل اليمن مقطوع اليد والرجل،

فشكا إليَّ أن الوالي على اليمن ظلمه بالسرقه. وكان

هذا الرجل يصلي من الليل، وكنتُ أراه فأقول: وأبيكَ

ما ليلك ليل سارق.

ثم أننا فقدنا حُلياً لزوجتي أسماء بنت عميس، وجعلنا نبحث عنها، فكان يبحثُ معنا ويقول: اللهم عليك بمن سرق أهل هذا البيت الصالح!

ثم وجدنا الحلي عند ضائع، فسألناه عنه، فأخبرنا أن رجلاً مقطوع اليد والرجل جاءه وباعه إياه، فجيئْتُ بالرجل فعرّفه الصائع فإذا هو صاحبنا الذي جاء من اليمن يدعي أن يده ورجله قد قطعنا ظُلماً.

فقلتُ: والله لدعاؤه على نفسه أشدُّ عليه من سرقة.

- وماذا قصدتَ بقولك هذا؟

- أردتُ أن أتعجبَ من تجرّئه على الله، أكرمناه، وحسبناه مظلوماً، فقام بسرقتنا ثم مثل دور البريء وأخذ يبحث معنا عن السارق، ويدعو الله أن ينتقم ممن قام بسرقتنا، وهو السارق!

- سبحان الله ما أجزأ بعض الناس على الله.

- بل قل سبحان الله ما أحلمه على الناس.

- فما قصة أَيْسْتَنانَ بفارس الروم؟

- كان بُنان أحد قادة الروم، وكان إذا قتل أحداً من المسلمين، قطع رأسه وأرسله إلى قيصر، ثم وقعت معركة بين المسلمين والروم في الشام وقُتل بُنان، فبعث إليَّ عمرو بن العاص وشرحيل بن حسنة برأسه مع عقبة بن عامر، فلما جاءني به غضبتُ وأنكرتُ ذلك. فقال لي عقبة: يا خليفة رسول الله، إنهم يفعلون هذا بنا.

فقلتُ له: أفيسْتَنّان بفارس والروم؟ لا يُحمل إلَيَّ رأس،
وإنما يكفي أن يكتبوا لي كتاباً بما حدث
- ولكنهم كانوا يفعلون هذا بقتلى المسلمين!
- قد علمتُ هذا، ولكننا نعامل الناس بأخلاقنا لا
بأخلاقهم، فإذا تخلّوا عن أخلاقهم فهذا ليس مبرراً أن
نتنازل نحن عن أخلاقنا!
- صدقتَ يا خليفة رسول الله. وبقي هناك شيء آخر
أسألك عنه في هذا الباب.
- تفضّل يا بُني.

- ما قصة الرجل الذي دخلَ عليكَ أنتَ وعمر فضربته؟
- في أحد أيام الجمعة قمتُ خطيباً بالناس، فقلتُ في آخر
الخطبة: إذا كان الغداة فاحضروا صدقات الإبل نقسمها
بين الناس فإنها كثيرة، ولا يدخل علينا أحدٌ أنا وعمر
حتى ننتهي من قسمتها. غير أن امرأة قالت لزوجها:
خُذْ هذا الخطام/ الحبل واذهبْ إلى أبي بكر فلعلَّ الله
يرزقنا جملًا نربطه به.
فما شعرتُ إلا والرجل واقف عند رأسي، فقلتُ له غاضباً:
ما أدخلك علينا؟
ثم أخذتُ منه الخطام وضربته به، ولما انتهينا من قسمة
الإبل ندمتُ على ما كان مني، فناديْتُ في الناس: أين صاحب
الخطام؟

فجاء يحمل خطامه، فقلتُ له: اقتصّ مني، واضربني كما
ضربتكَ!

فقال لي عمر: واللّه لا يقتصّ منك، لا تجعلها سنةً كلما
أخطأ خليفة في حق واحدٍ من الرعية، قام المظلوم بضرب
الأمير فتضيعُ هيئته!

فقلتُ لعمر: فمن لي من اللّه يوم القيامة؟
فقال لي عمر: أرْضِه إذاً.

فأمّرتُ غلامي أن يعطيه ناقةً، وثياباً، وخمسةً دنانير، فأخذها
الرجل راضياً وذهبَ إلى بيته.

- صدقَ واللّه عمر، كان هذا أفضل من أن يضربكَ.

- واللّه لو لم يرْضَ إلاّ بضربي ما منعتَه.

- سبحان الله تدعُ أحدَ أفراد رعيّتك يضربكَ؟

- ألسْتُ قد ضربته أولاً؟

- بلى، ولكنه أخطأ أولاً.

- نعم أخطأ بالدخول دون إذن، ولكن هذا لا يبيح لي

ضربه، رجل جاء في حاجة، وصاحب الحاجة أرعن،

وأن يضربني في الدنيا أحب إليّ أن أقف يوم القيامة بين

يدي اللّه فيشكوني إليه.

- اتعبتَ من بعدك يا أبا بكر!

- والآن يا خليفة رسول الله أشعر بحرجٍ شديد، وخجل عارم، لشيءٍ أريدُ أن أسألك عنه.
- ولمَ الحرجُ يا بُني؟ سل ما بدا لك.
- الحرجُ يا خليفة رسول الله أن بعض أراذل الناس قد قالوا عنكَ أقوالاً لا نرضى أن تُقال فيكَ، وأنتَ عندنا أعزُّ وأكرم وأنقى من أن تُتهم، ولكني أردتُ أن أسألك عنها لا لتدافع عن نفسك، معاذ الله، وإنما يحتاج للدفاع من كان متهماً وأنتَ عندنا فوق الشُّبهات، ولكن من باب كما جرت العادة منذ أن التقينا أن نسمع القصة من صاحبها، والحكاية من الحكاية نفسها، وأنتَ والله حكاية من لحم ودم تُروى للأجيال على مر الدهور تسليّةً وعزاءً واقتداءً.

- يا بُني لا تجد حرجاً في صدرك من أي شيء، قل لي ما قالوا، وأنا بإذن الله أجيبك. وتذكر أنه ما من أحدٍ إلا وله كاره أو حاسد، وأن الناس طالما أساءوا الأدب مع الله، فقد قالوا يد الله مغلولة، ونسبوا له الولد والزوجة تعالى الله عن هذا علواً كبيراً. وقالوا عن النبي ﷺ

ساحر، وشاعر، ومجنون، وكذاب، فإذا كان الله جلّ
في علاه قد قيل فيه ما قيل، وسيد الخلق قد قيل فيه
ما قيل، فهل يسلم أبو بكر؟

ثم إن موسى عليه السلام قد سأل الله يوماً أن لا يقول فيه
الناس ما ليس فيه. فقال له الله تعالى: يا موسى هذا شيء لم
أجعله لنفسى فكيف أجعله لك؟!

- أرحتني بعمق فهمك، وسعة صدرك، وبليغ كلماتك يا
خليفة رسول الله.

- بارك الله بك يا بُني، هات ما عندك لا عليك، فإن لكل
ما تسأل عنه جواباً إن شاء الله.

- قال أراذل الناس: أن النبي ﷺ قال: أنفذوا جيش أسامة،
لعن الله المتخلف عن جيش أسامة، وأنت وعمر وعثمان لم
تكونوا في الجيش، فما ردك؟

- أولاً: لم يقل النبي ﷺ هذا، وإنما هذا افتراء وكذب
على النبي ﷺ.

ثانياً: بعث النبي ﷺ جيش أسامة في مرضه الذي مات
فيه، وكان الجيش في معسكره، ولم يتحرك حتى قبض النبي
ﷺ، وقد عهد إليّ في فترة مرضه أن أصلي بالناس، فكيف
يأمرني أن أصلي بالناس في مرضه ثم أكون في الجيش؟ ثم
إذا كان لعن من تخلف عن جيش أسامة فكيف كان يأتي في

مرضه ويصلي معنا في المسجد نحن الذين بقينا في المدينة ولم نكن في معسكر الجيش؟ كيف يلعننا ثم يأتي ويصلي معنا؟! الأمر بحاجة إلى بعض المنطق والعقل، ولكن من أعماه الحق فلا عقل ولا منطق لديه!

ثالثاً: أنا وعثمان لم نكن ضمن جيش أسامة أساساً، فلم يبعثنا النبي ﷺ من الأساس. وإنما استبقانا في المدينة، من كان في جيش أسامة هو عمر بن الخطاب فقط وهو لم يتخلف، ولم يرفض الذهاب، وإنما كان في المعسكر، وعندما مات النبي ﷺ استأذنت أسامة بن زيد أن يبقى عمر عندي، لأن حاجة المسلمين إلى رأي عمر في هذه الأزمة أشد من حاجتهم إليه مقاتلاً عادياً في جيش كثير العدد! ولولا أنني استبقيته لحاجتي له، وزيراً أميناً وناصحاً صادقاً لكان ذهب، ثم إن عمر ما تخلف يوماً عن غزوة، وكان في بدر وأحد وخيبر وتبوك وفتح مكة وكلها غزوات أخطر وأدهى من جيش أسامة.

- رد مفحم يا خليفة رسول الله، فسبحان من أتاك حكماً وعلماً.

- سبحانه وتعالى، فإذا قال هؤلاء الأراذل بعد؟

- قالوا: منع أبو بكر فاطمة إرثها في خير وفدك، فقالت له: يا ابن أبي قحافة أترث أباك ولا أترث أبي؟ والتجأ إلى رواية انفرد بها، وهي أن النبي ﷺ قال: «نحن معاشر الأنبياء

لَا نُورُثُ مَا تَرَكَهُ صَدَقَةٌ». وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ يَخَالِفُ ذَلِكَ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾. وَلَمْ يَجْعَلْ ذَلِكَ خَاصًّا بِالْأُمَّةِ دُونَهُ. كَمَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾. فَكَيْفَ يَرِثُ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَبَاهُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَا تَرِثُ فَاطِمَةُ أَبَاهَا؟
 - أَوَّلًا: لَمْ تَقُلْ لِي فَاطِمَةُ: أَتَرِثُ أَبَاكَ وَلَا أَرِثُ أَبِي. وَإِنَّمَا الْقِصَّةُ كُلُّهَا أَنَّهَا جَاءَتْني بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ تَطْلُبُ مِيرَاثَهَا مِمَّا تَرَكَهُ أَبُوهَا.

فَقُلْتُ لَهَا: يَا فَاطِمَةُ إِنَّ أَبَاكَ قَالَ عَلَى مَسَامِعِي: نَحْنُ مَعَاشِرُ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورِثُ، مَا تَرَكَهُ صَدَقَةٌ.
 فَغَضِبْتُ فَاطِمَةَ، وَلَمْ تَرْضَ بِحُكْمِي هَذَا، فَقُلْتُ لَهَا: لَسْتُ تَارِكًا شَيْئًا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَعْمَلُ بِهِ إِلَّا وَعَمَلْتُ بِهِ، فَإِنِّي أَخْشَى أَنْ تَرَكْتُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ أَنْ أَزِيغَ.
 ثُمَّ لِنَفْتَرِضَ جَدَلًا أَنَّهَا قَالَتْ لِي: أَتَرِثُ أَبَاكَ وَلَا أَرِثُ أَبِي.
 فَإِنَّ هَذَا مِمَّا لَا يَصَحُّ فِيهِ الْقِيَاسُ، فَأَبِي وَاحِدٌ مِنَ النَّاسِ يَرِثُ وَيُورِثُ بِنَصِّ الْآيَةِ. أَمَّا أَبُوهَا فَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَا يورِثُ بِنَصِّ كَلَامِهِ هُوَ.

ثُمَّ إِنِّي لَمْ أَخْذِ مَا تَرَكَهُ النَّبِيُّ ﷺ لِنَفْسِي، بَلْ إِنَّمَا طَبَقْتُ مَا قَالَ بِالْحَرْفِ، أَنْ يَكُونَ صَدَقَةٌ، فَجَعَلْتُهُ فِي بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ. وَلَوْ كَانَ حَقُّهَا لِأَعْطَيْتُهَا هُوَ، فَمَا كُنْتُ لِأَنْزِعَ حَقُوقَ عَامَةِ النَّاسِ حَتَّى أَنْزِعَ حَقَّ ابْنَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَهِيَ أَكْرَمُ عِنْدِي مِنْ غَيْرِهَا.

أما قول الله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾. فهذا خاص بالأمة دون النبي ﷺ، بنص قوله، ومعلوم أن قول النبي ﷺ شارح للقرآن، ومقيد له، فالقرآن يقول: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ والنبي ﷺ يقول: أُحِلَّتْ لَكُمْ مَيْتَانِ وَدِمَانِ، الكبد والطحال، والسّمك والجراد».

كان حكم أكل الميتة والدم حرام مطلقاً، وبنص الآية كل دم وميتة حرام، فجاء قوله ﷺ ليقيد الآية بإباحة الكبد والطحال من الدم، والسّمك والجراد من الميتة. كذلك لا يوجد في القرآن أن الذهب حرام على الرجال، وإنما حُرِّم بحديث النبي ﷺ. تماماً كما حُرِّم ميراثه بقوله!

أما قولهم: كيف لا يُورث الأنبياء والله يقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ فهذا ميراث العلم والنبوة لا ميراث الدرهم والدينار، بدليل أنه كان لداود عليه السلام أولاد غير سليمان فكيف يرثه وحده لو كان المقصود بها وراثة المال؟!

ثم إن داود عليه السلام كان فقيراً، وقد قال النبي ﷺ: «ما أكل أحدٌ طعاماً خيراً من أن يأكل من كسب يده، وإن نبيَّ الله داود كان يأكل من كسب يده».

بينما كان سليمان عليه السلام ملكاً نبياً، حيزت له الدنيا كلها !

وأزيدك من الشعر بيتاً، أنا لم أنفرد برواية أن الأنبياء لا يُورثون، بل قد قال النبي ﷺ في موضوع آخر قولاً صريحاً أن الأنبياء لم يُورثوا الدنيا بعد موتهم، فقد قال: «إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يُورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بخطِّ وافر!»

إذا تفسير أن سليمان قد ورث من داود مالاً، يتعارض مع هذا القول، فكيف يجيء القرآن بميراث الأنبياء في الدنيا والمال، ثم يقول النبي ﷺ أنهم لم يُورثوا ديناراً ولا درهماً. أهؤلاء الأراذل أعلم بمعاني القرآن من النبي ﷺ؟ أم هو الحقد والخبث؟
- هو الحقد والخبث والجهل يا خليفة رسول الله.

- فماذا قال هؤلاء الأفاكون أيضاً؟

- قالوا: إن أبا بكر عند احتضاره قال: ليت أُمي لم تلدني، يا ليتني كنتُ تبة في لبة. والنبي ﷺ قال: ما من محتضر إلا ويرى مقعده من الجنة أو النار. فهو ندم لأنه رأى مقعده من النار!

- كذبوا والله، فلم أقل هذا عند احتضاري، وإن كل القصة أن عائشة ابتني لما رأني في سكرات الموت، قالت:

لعمرك ما يُغني الشراء عن الفتى

إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدرُ

فقلتُ لها: ليس كذلك، وإنما قل لي ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾.

وأما قولي: لَيْتَ أُمِّي لَمْ تَلِدْنِي. فقلتها وأنا في كامل قوتي وصحتي، وهذا قول الصالحين من أتباع الأنبياء على مرِّ التاريخ خوفاً من أهوال يوم القيامة، وهذا من الأدب مع الله، وخوف الإنسان على نفسه أن لا تطاله رحمة الله، فقد قال النبي ﷺ: «لن يُدخِلَ أحداً عمله الجنة. فقلنا: ولا أنت يا رسول الله؟ فقال: لا، ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة»!

وكان النبي ﷺ كثير الاستغفار، فليتهموه إذاً أنّه كان كثير الذنوب!

سبحان الله كيف لهؤلاء كيف لا يفهمون معنى الأدب مع الله!

- أحسنت قولاً وإجابة يا خليفة رسول الله.
- فماذا قال هؤلاء الأراذل بعد؟
- قالوا: لم يولّ النبي ﷺ أباً بكر أي عملٍ في حياته فكيف يوليه الخلافة؟

- سبحان الله فهذا جمع بين الجهل والكذب، فإنَّ النبي ﷺ ولاّني على الحج في العام التاسع للهجرة الشريفة بعد عودته من غزوة تبوك. ثم حجَّ هو بالناس في العام الذي بعده فيما عُرف بحجة الوداع.

ثم إنَّ عدم ولايتي إن صحَّت فلا تدل على نقصي، بل تدل على حاجته لي عنده، فقد كنتُ وزيره، وهذا دأبُ الحكام الفقهاء، أنهم يُيقنون عندهم من يحتاجون لرأيه لأنه لا يسد

أحد مكانهم، أما الوظائف فيقوم بها الكثيرون، وقد جاء عمر بن الخطاب بعدي ولم يكن يولي أهل الشورى كعثمان وطلحة والزبير وعلي، وهؤلاء أصلح وأفضل ممن ولأهم المدن والبلاد، ولكن حاجة الأمير إلى بعضهم قُربَه أحوج من حاجته لهم بعيداً عنه.

- صدقتَ يا خليفة رسول الله.

- فماذا قال هؤلاء الأفاكون بعد؟

- قالوا: إِنَّ أبا بكرٍ قال: إِنَّ لي شيطاناً يعتريني، فإن استقمْتُ

فأعينوني، وإن زغتُ فقوموني، ومن شأن الإمام تكميل

الرعية، فكيف يطلب منهم الكمال؟!

- هذا قول مجتزأ! والحقُّ أنني قلتُ: إِنَّ لي شيطاناً

يعتريني عند الغضب، فإذا عتراني فاجتنبوني لا أؤثر

في أبشاركم.

وقلتُ أيضاً: أطيعوني ما أطعتُ الله ورسوله، فإن عصيتهما

فلا طاعة لي عليكم. وهذا والله إنما يجب أن يكون في كتاب

مدحي لا في كتاب ذمي!

فأما قولي عن الشيطان يعتريني، فالشيطان يعترِي الإنسان

عند الغضب، فخشيتُ إن غضبتُ أن أظلم أحداً، أو أقول له

كلاماً جارحاً، فأمرتهم أن يجتنبوني وأنا في فورة غضبي، لأن

الغضب يحمل الإنسان على ما يكره، وقد قال النبي ﷺ: لا يقضينَ حكم بين اثنين وهو غضبان.

وهذا ما أردته بالضبط، أن لا أحكم وأنا غضبان، وهذا من طاعتي للنبي ﷺ، ومن حرصي على المسلمين.

ثم إنَّ الغضبَ يعتري كل خلق الله، وقد قال النبي ﷺ: «اللهمَّ إني آخذُ عندكَ عهداً لن تُخلفنيهِ، فإنما أنا بشر، فأَيُّ المؤمنين آذيتَه، شتمتَه، لعنتَه، جلدتَه، فاجعلها له صلاةً وزكاةً، وقربةً تُقربه بها إليك يوم القيامة».

فها هو رسول الله قد يعتريه شيء من الغضب.
وقال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاخَ وَفِي نُسُخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾.

وهذا كليم الله قد أخذه الغضب، فإذا كان الغضب لا يقدح في المرء أن يكون نبياً، فمن باب أولى أن لا يقدح في المرء أن يكون خليفةً، لأن مقام النبوة أعلى من مقام الخلافة.
أما عن اعتراض الشيطان للإنسان ففي القرآن منه كثير، فقد قال موسى عليه السلام عندما قتل القبطي ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾.

وقال فتى موسى عليه السلام لما نسي إخباره بأمر الحوت ﴿وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَن أَدْكُرَهُ﴾.

وقال الله تعالى عن آدم عليه السلام وحواء ﴿فَازَّهَمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾.

فإذا كان اعتراض الشيطان للإنسان لا يقدر في نبوته، فمن باب أولى أن لا يقدر في خلافته، لأن مقام النبوة أعلى وأجل.

وأما قلبي: فإن استقمْتُ فأعينوني، وإن زغْتُ فقوموني، فهذا من عدلي وتقواي، وواجب كل حاكم أن يقتدي بي في ذلك، وواجب الرعية أن تعامل حكامها بهذا، فإن استقام الحاكم أعانوه، وإن زاغ بينوا له الصواب ودلوه عليه.

وأما قولهم: من شأن الإمام تكميل الرعية، فكيف يطلب منهم التكميل؟
فهذا أمره أيسر مما قبله، والرد على ذلك من وجوه:

الأول: معناه أنه يجب على الإمام والرعية أن يتعاونوا على البر والتقوى، لا على الإثم والعدوان، والدين قد اكتمل بالنبي ﷺ، فلم يبقَ عند الحاكم دين ينفرده، ولكن لا بُدَّ من الاجتهاد في الجزئيات، وفي مستجدات الأمور، فإن كان الحق واضحاً أمر به الحاكم، وإن كان واضحاً له خفياً عليهم

بَيَّنْهُ لَهُمْ، وَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ مُشْتَبِهًا تَشَاوَرْ فِيهِ الْحُكَّامُ مَعَ الرِّعِيَةِ لِيُصَلُّوا إِلَى الْحَقِّ، وَإِنْ تَبَيَّنَ لِأَحَدٍ مِنَ الرِّعِيَةِ رَأْيُ الْحَقِّ، أَدْلَى بِهِ إِلَى الْحَاكِمِ. وَيَهَذَا الْمَعْنَى تَكْمِلُ الرِّعِيَةُ حَاكِمَهَا.

الثاني: كل من المخلوقين قد استُكْمِلَ بالآخر، كالمتناظرين في العلم، والمتشاورين في الرأي، والمتعاونين المتشاركين في مصلحة الدين والدنيا، فالناس يكملُ بعضهم بعضاً.

الثالث: ما زال المتعلمون يُنبهون معلمهم على أشياء، ويستفيدوا المعلم منهم، مع أن عامة ما عند المتعلم من الأصول قد تلقاها من معلمه، ولكن الأمر كما قال ربنا في محكم التنزيل ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

الرابع: موسى عليه السلام قد استفاد من الخضر في ثلاث مسائل ولم يُنقص هذا من نبوته. وقال الهدد لسليمان عليه السلام ﴿أَحْطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾. ولم ينقص هذا من نبوته.

والنبي ﷺ كان يستشير أصحابه، ويرجع إليهم بالرأي، وربما ترك رأياً كان يراه لرأي أحدٍ منهم تماماً كما حدث في غزوة بدر يوم قال الحباب بن المنذر للنبي ﷺ: يا رسول الله، أرايتَ هذا المنزل أهو منزل أنزلك الله تعالى إياه فليس لنا أن نتعداه، أم هو الحرب والرأي والمكيدة؟

فقال له النبي ﷺ: بل هو الحرب والرأي والمكيدة.

فقال الحباب: ليس هذا بمنزل قتال!

فرجع النبي ﷺ إلى رأي الحباب. ولم يقدح ذلك في نبوته شيئاً!

- صدقت يا خليفة رسول الله، رد مفحم ومُلجم، فسبحان من جعل بعض البيان سحراً وأعطاك منه ما تبلغ به حجتك، وتذل خصمك.

- بارك الله بك يا بُني، فهل انتهينا من هؤلاء الأراذل أم أنهم قد افتروا شيئاً غيره؟

- للأسف لقد افتروا بعد!

- فماذا قالوا؟

- قالوا: يقول الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾. وهذه الآية تدل على ضعف إيمان أبي بكر وقلّة صبره، وعدم يقينه بالله، وعدم رضاه بمساواته للنبي ﷺ، أي في أن يموتا معاً بقضاء الله وقدره.

- شئت أيمانهم وأخرست ألسنتهم، فقد افتروا عليّ وقالوا بهتاناً عظيماً، والرد على كذبهم سهل بسيط من عدة وجوه:

الأول: ليس في الآية ما يدل على هذا، على العكس هذه أحبُّ آيات المصحف إلى قلبي، قرآن يُتلى إلى يوم القيامة،

يشهدُ أنني كنتُ صاحب النبي ﷺ ورفيقه، وأنه كان يرتُّ على قلبي، ويطمئني ويقول: «لا تحزن إن الله معنا». ووالله هي أجمل ما قال صديق لصديقه في تاريخ البشرية.

الثاني: هذه الآية دليل على حزني على النبي ﷺ لئلا يُقتل فيذهب الإسلام، وكنتُ أتمنى لو فديته بنفسي، لهذا كنتُ قبل أن تبلغ الغار أمشي أمامه تارةً ووراسه تارةً، فسألني عن ذلك، فقلتُ: يا رسول الله، أذكرُ الرِّصدَ فأكونُ أمامك، وأذكرُ الطَّلَبَ فأكونُ وراءك.

أما كذبهم في قولهم بأنني لم أرَضَ أن نموتَ معاً، بل إنني لم أرَضَ أن يُقتل النبي ﷺ وأعيشُ أنا، وإنما أفديه بنفسي وأهلي ومالي. وهذا واجب كل مسلم، ومن باب أولى فهو واجبي وأنا صديقه وخليته.

أما حزني فكان على النبي ﷺ، وهذا يُحسب لي لا عليّ، فإن لم أحزن عليه لاتهمتُ إيماني!

الثالث: قولهم إنه يدل على قلة صبري فباطل، بل ولا يدل على انعدام شيءٍ من الصبر المأمور به، فإنَّ الصبر على المصائب واجب بنص القرآن الكريم والسنة المطهرة، ومع هذا فحزن القلب لا يُنافي ذلك.

وقد قال النبي ﷺ: إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُ بدمع العين، ولا بحزن القلب، ولكن يُعَذِّبُ بهذا ۖ وأشار إلى لسانه ۖ أو يرحم.

الرابع: أما قولهم بهتاناً إنه يدل على عدم يقيني بالله. فهذا كذب وافتراء، فإن الأنبياء قد حزنوا، ولم يكن ذلك دليلاً على عدم يقينهم بالله، كما حزن يعقوب عليه السلام على فراق يوسف عليه السلام، وكما حزن النبي ﷺ عند موت ابنه إبراهيم، ودمعت عيناه، وقال: إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، والله يا إبراهيم إنا بك لمحزونون!

الخامس: قولهم كذباً بأن هذا يدل على ضعفي وعدم رضائي بقضاء الله وقدره، فوالله إني لم أسخط يوماً على قدر الله، لقيتُ في سبيل الله من كفار قريش ما يهد الجبال فثبتُ. ثم أنا من طلبتُ من النبي ﷺ أن يصحبني معه، وقد تكرر عليّ أن قبل، وكنتُ أعلم بمخاطر الطريق، وصعوبة ما أنا قادم عليه، فليس الأمر فقدان ابن أو مال نزل عليّ فجأة، وإنما مشيتُ إلى قدر الله مختاراً، راضياً به!

- كالعادة يا خليفة رسول الله، ردُّ ملجم، يثلج الصدر.
- بارك الله بك يا بُني، فهل عند هؤلاء النكرات شيء بعد؟
- أجل يا خليفة رسول الله.
- فهاتِ إذاً.
- قالوا: إنَّ تقديم أبي بكر، إماماً في الصلاة كان خطأً، لأنَّ بلالاً لما أذنَّ بالصلاة، أمرتُ عائشة أن يُقدِّم أبا بكر،

فلما أفاق النبي ﷺ وسمع التكبير، قال: من يُصلي بالناس؟ فقالوا: أبو بكر. فقال: أخرجوني. فخرج بين عليٍّ والعباس فنحّاه عن القبلة، وعزله عن الصلاة، وتولى الصلاة.

- سبحان الله ما أكذبهم وأجهلهم!

فأما كذبهم: فقد قالوا بخلاف ما حدث، فلا علاقة لعائشة بالأمر، على العكس تماماً هي لم ترد أن أصلي أساساً بالناس، وحين قال لها النبي ﷺ: مروا أبا بكر فليصل بالناس. قالت له: إن أبا بكر رجل أسيف / رقيق إن يُقْم مقامك بيكي، فلا يقدر على القراءة. فقال: مروا أبا بكر فليُصل بالناس.

واستعانت عائشة بحفصة، لتقول للنبي ﷺ مثل قولها، فأبى وقال: إنكنَّ صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس.

وأما جهلهم: فإنهم يحسبون أنها كانت صلاةً واحدة. والصحيح أنني صليتُ بالناس طوال مرض النبي ﷺ، وبقيتُ على هذا حتى قبضَ بأبي هو وأمي. - أحسنتَ رداً كالعادة يا خليفة رسول الله.

- بوركتَ يا بُني، فهل عند هؤلاء المفترين شيء بعد؟

- للأسف ما زال عندهم شيء بعد.

- فهاته إذاً.

- قالوا: لو أنفقَ أبو بكر في سبيل الله لوجبَ أن ينزلَ فيه قرآن كما نزل في علي بن أبي طالب في سورة الإنسان.
- عندما يجتمع الجهل مع الكذب!
فأما الجهل: فقولهم عن نزول سورة الإنسان في أخي وصاحبي علي بن أبي طالب قول من لا علم له!

فسورة الإنسان مكية نزلت قبل الهجرة، وقبل أن يتزوج عليُّ بفاطمة، ولم ينزل قط قرآن في إنفاق علي بن أبي طالب على فضله وشجاعته وجهاده، لأنه كان فقيراً لا مال لديه، ولما زوّجه النبي ﷺ بفاطمة لم يكن معه مهر إلا درعه، فمن أين يُنفقُ من ليس لديه مهر ليتزوج؟!

وأما الكذب: وهو أشد الكذب لأنه تكذيب للنبي ﷺ وهو القائل في الخلاف الذي حدث بيني وبين عمر مرة: «إنَّ الله بعثني إليكم ، فقلتم كذبتَ، وقال أبو بكر: صدق. وواساني بماله ونفسه، فهل أنتم تاركو لي صاحبي».

فكيف يقول النبي ﷺ إني واسيته بمالي ثم ينكر هؤلاء الشرذمة ذلك؟

ثم أين إعتاقي لبلال بن رباح والمستضعفين من عبيد المسلمين في مكة؟ وأين جيش العسرة يوم جئت بكل مالي، فقال لي النبي ﷺ: ما تركتَ لأهلك يا أبا بكر؟

فقلتُ: تركتُ لهم الله ورسوله!

- أحسنتَ ردّاً يا خليفة رسول الله.

- باركَ الله بك يا بُني، فهل عند هؤلاء الكذابين شيء
بعد؟

- أجل ما زال عندهم.

- فهاته إذّا!

- قالوا: إن أبا بكر كان معلماً للصبيان في الجاهلية، وكان
خياطاً في الإسلام فلما وليَ الخلافة منعه المسلمون
من ذلك؟

- سبحان الله من كذبهم الذي لو صحَّ ما كان إساءة لي!
لقد كنتُ تاجراً في الجاهلية، وتاجراً في الإسلام. ثم لنفترض
أنني كنتُ معلماً للصبيان في الجاهلية فأين العيبُ في أن يكون
المرءُ معلماً. ولنفترض أنني كنتُ خياطاً في الإسلام فأين
العيبُ في هذا أيضاً، ولكنه جهلهم حين اعتقدوا أن المهنة
تقدح بالمرء، فقد قال النبي ﷺ: « كان زكريا عليه السلام
نجاراً! وهذا لم يقدح في نبوته، فلو كنتُ معلماً للصبيان لم
يقدح ذلك فيَّ أيضاً!

كذلك أخبرنا النبي ﷺ أن داود عليه السلام كان يأكل من
كسب يديه، وكان يصنع الدروع ويبيعها. وقال الله تعالى عنه
في القرآن: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ
فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾

ولم يقدح هذا في نبوته، فأين العيب لو كنتُ خياطاً.

والحق أنني كنتُ تاجراً، ويوم وليتُ الخلافة أردتُ أن أبقى على عملي لأطعم عيالي، فكان الرأي أن أتفرغ للناس ويعطونني راتباً من بيت المال، فأين العيب في هذا؟

- لا عيب، ولكن الحاقدي يرى الأمور بسواد قلبه.

- صدقتَ يا بُني، فهل عند هؤلاء الأراذل من شيء بعد

- لا يا خليفة رسول الله، هذا كل ما افتروه كذباً.

- لا بأس يا بُني، وعند الله تجتمعُ الخصوم!

- وصلنا الآن إلى مشارف الوداع يا خليفة رسول الله، وإنَّ لقاءك لعذب، وكلامك لحلو، ولكن على ما يبدو أن لكل شيء نهاية في هذه الحياة.

- صدقتَ يا بُني، هذه هي سُنَّةُ الله تعالى في الكون، ما عافية إلا ويعقبها مرض، وما لقاء إلا ويعقبه فراق، وما حياة إلا ويعقبها موت.

- فعلى سيرة الموت يا خليفة رسول الله، فحدثني عن مرضك الذي سبق ارتحالك إلى جوار ربك، فقد سمعتُ عنه أخباراً كثيرة متضاربة.

- وما سمعتَ يا بُني؟

- هي ثلاثة أخبار:

الأول: هي أنك كنتَ وطيبَ العربِ الشهير الحارث بن كلدة تأكلان الحريرة وهي الدقيق الذي يُطبخ باللبن أو الدسم. فبينما أنتما تأكلان، قال لك الحارث بن كلدة: ارفع يدك يا خليفة رسول الله، إنَّ فيها سُمَّ سنة، وأنا وأنت نموتُ في يوم واحد عند انقضاء السَّنة.

الثاني: أن بداية مرضك أنك اغتسلت يوم الإثنين في السابع من جمادى الآخرة، وكان يوماً بارداً، فأصبت بالحمى لمدة خمسة عشر يوماً، فلم تكن تخرج إلى الصلاة لشدة مرضك، وأمرت عمر بن الخطاب أن يصلي بالناس، فصلى فيهم إلى أن انتقلت إلى جوار ربّ راضٍ غير غضبان.

الثالث: أن سبب موتك هو الحزن والكمْدُ على النبي ﷺ، وأنّ هذا أورثك مرض السّل، فمرضت بعد خروج خالد من العراق، وأنت يومئذٍ في دارك التي أقطعك إياها النبي ﷺ قرب دار عثمان بن عفان، فكان أكرم الناس لك في مرضك، وأكرمهم لك حتى فاضت الروح إلى بارئها.

- فأما خبر الحارث بن كلدة فلا يصح، ثم إن الحارث بن كلدة عمّر وعاش حتى توفي في خلافة معاوية.

وأما الحزن على النبي ﷺ ومرض السّل، فلم يبق مؤمن إلا حزن لموت النبي ﷺ، ولكن ما علاقة الحزن بمرض السّل، الذي لم أصب به أساساً.

ولكن الصحيح هو أنني اغتسلت في يوم باردٍ، فأصابني ذلك بالحمى وبقيت أعاني منها خمسة عشر يوماً، تشدُّ عليّ يوماً بعد يوم حتى غادرت الدنيا إثر هذا المرض.

وأما عثمان ففعلاً أنه كان ألزم الناس لي في مرضي بحكم أنه كان جاري.

- فماذا عن استخلافك عمر بن الخطاب يا خليفة رسول الله، أعني كيف تمّ الأمر؟

- لما ثقل عليّ المرض، وأدركتُ أن الموت قد اقترب لا محالة، جمعتُ الناسَ وقلتُ لهم: إنه قد نزل بي ما قد ترون، ولا أظنني إلا ميتاً لما بي، وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتي، وحلّ عنكم عقدتي، وردّ إليكم أمركم، فأمرّوا عليكم من أحببتهم، فإنكم إن أمّرتهم في حياة مني كان أجدر ألا تختلفوا بعدي.

- والله إنه لنعم الرأى، لقد تركتُ لهم الأمر ليختاروا، فماذا حدث بعد ذلك؟

- ذهبوا عني، ونظروا في أمرهم فلم يستقم لهم رأى، فرجعوا إليّ فقالوا: رأينا يا خليفة رسول الله رأيك، فاقض أنت.

فقلتُ: أمهلوني حتى أنظر لله ولدينه ولعباده.

- فما فعلتَ؟

- دعوتُ عبد الرحمن بن عوف، وقلتُ له: أخبرني عن عمر بن الخطاب.

فقال: ما تسألني عن أمرٍ من أمور عمر إلا وأنت أعلم به مني.

فقلتُ له: وإن يكن، فإنني أريدُ أن أسمع رأيك.

فقال: هو والله أفضل من رأيك فيه.

ثم دعوت عثمان بن عفان وقلتُ له: أخبرني عن عمر بن الخطاب.

فقال: أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي.

فقلتُ: وَلَكِنِّي أُرِيدُ رَأْيَكَ.

فقال: علمي به أن سريره خير من علانيته، وأنه ليس فينا مثله .

فقلتُ له: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، وَاللَّهِ لَوْ تَرَكْتَهُ مَا عَدَوْتُكَ.

- وماذا حصل بعد ذلك؟

- بعد ذلك شاورتُ سعيد بن زيد، وأُسَيد بن حُضير، وغيرهما من المهاجرين والأنصار، فقال أُسيد بن حُضير: اللَّهُمَّ أَعْلِمْهُ الْخَيْرَ بَعْدَكَ، يَرْضَى لِلرَّضَى، وَيَسْخَطُ لِلْسَخَطِ، وَالَّذِي يُسِرُّ خَيْرٌ مِنَ الَّذِي يُعْلِنُ، وَلَنْ يَلِيَ هَذَا الْأَمْرَ أَحَدٌ أَقْوَى عَلَيْهِ مِنْهُ.

- فهل رضي الجميع عن قرارك باستخلاف عمر بن

الخطاب أم أن بعضهم قد عارضَ؟

- سَمِعَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ بِاسْتِدْعَائِي لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، وَعُثْمَانَ، وَغَيْرِهِمْ، فَدَخَلُوا عَلَيَّ، وَقَالَ لِي طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ: مَا أَنْتَ قَائِلٌ لِرَبِّكَ غَدًا إِذَا سَأَلَكَ عَنْ اسْتِخْلَافِ عُمَرَ عَلَيْنَا، وَقَدْ تَرَى غِلْظَتَهُ، وَهُوَ إِذَا وَلِيَ كَانَ أَفْظَ وَأَغْلَظَ!

- فماذا أجبتَه يا خليفة رسول الله؟

- كنتُ نائماً من شدة مرضي، فقلتُ لمن حولي: أجلسوني. فلما جلستُ قلتُ: أباللهِ تخوفونني؟ خافَ من تزوّد من أمركم بظلم. فإن سألني أقول: اللهم إني قد استخلفتُ على أهلكَ خير أهلك! أبلغ عني ما قلتُ لك لمن وراءك!

- فلماذا لم يرضَ هو ومن معه بعمر؟
- كان عمر بن الخطاب شديداً حازماً، لما كان يراه من ليني، فكان يشدُّ ليني بقوته فيستقيم أمرنا، وقد خشوا إذا صار الخليفة أن يشتدَّ فلا يلين، وكنتُ أعرف أن عمر حازم من غير قسوة، رقيق من غير ضعف، وكانت فراستي فيه في مكانها، فواللهِ كان من خير خلفاء المسلمين على مرِّ التاريخ، أعزَّ الله به الإسلام وأهله، وأذلَّ به الشرك وأهله.

- هو واللهِ كما قلتُ فيه، خير خلفٍ لخير سلفٍ، وقد كان ختام خلافتك مسكاً إذ وليته أمر المسلمين بعدك.
- بارك الله بك يا بُني.

- وماذا حدث بعد ذلك يا خليفة رسول الله؟
- دعوتُ عثمان بن عفان إليَّ، وقلتُ له: أكتب بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما دعا به أبو بكر بن أبي قحافة، في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وأول عهده بالآخرة داخلاً إليها، حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب، وإني استخلفتُ عليكم...

وقبل أن أذكر له اسم عمر بن الخطاب أخذتني غشية من شدة المرض، فكتبَ عني إني استخلفتُ عليكم بعدي عمر بن الخطاب.

فلما أفقتُ قلتُ اقرأ عليّ ما كتبتُ.
فقرأ عليّ اسم عمر بن الخطاب، فقلتُ: الله أكبر.

ثم قلتُ له: أراك خفتَ أن تذهبَ نفسي في غشيتي تلكَ فيختلفَ الناس، فجزاك الله عن الإسلام خيراً، والله إن كنتَ لها أهلاً.

ثم أمرته أن يكتبَ تمة الكتاب:
فاسمعوا له وأطيعوا، وإني لم أَلِ الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيراً، فإن عدلَ وذلك ظني به، وعلمي فيه، وإن بدَّلَ فلكل امرئٍ ما اكتسبَ، والخيرُ أردتُ ولا أعلمُ الغيب،
«وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ». والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ثم أمرته فختمَ الكتاب، وخرجَ به مختوماً، فقال للناس:
أتبايعون لمن في هذا الكتاب؟
فقالوا: نعم

وأقروا بذلك جميعاً، ورضوا به وبايعوه.
- وماذا فعلتَ بعد ذلك يا خليفة رسول الله؟

- رفعتُ يديّ أدعو الله تعالى، فقلتُ: اللهمَّ إني لم أُرِدْ بذلك إلا إصلاحهم، وخِفْتُ عليهم الفتنة، فعملتُ فيهم ما أنت أعلمُ به، واجتهدتُ لهم رأيي، فوليتُ عليهم خيرهم وأقواهم عليه. وقد حضرني من أمرِكَ ما حضرَ، فاخلفني فيهم، فهُم عبادك، ونواصيهم بيدك، وأصلحْ لهم أميرهم، واجعله من خلفائك الراشدين، وأصلحْ له رعيّته.

- فهل أوصيتَ عمر بن الخطاب بشيءٍ يا خليفة رسول الله؟

- بالطبع يا بُني

- وبمَ أوصيته؟

- قلتُ له أدُنْ مني يا عمر، فلما دنا قلتُ: إني مستخلفك، وأوصيك بتقوى الله يا عمر! إن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل، واعلم أنه لا تُقبل منك نافلة حتى تُؤدي الفريضة، وأنه إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق، وحُقَّ لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً! وإنما خَفَّتْ موازين من خَفَّتْ موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل، وحُقَّ لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً. إن الله جلَّ ذكره ذَكَرَ أهل الجنة بحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم، فإذا ذكرتهم فقل إني أخاف

ألا أكون من هؤلاء. وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغبًا راهبًا، لا يتمنى على الله غير الحق، ولا يلقي بيده إلى التهلكة، فإن حفظت وصيتي فلا يكونن غائب أحب إليك من الموت، ولست بمعجزه!

- هي والله وصية مودع، وإن المرء أصدق ما يكون إذا كان في إدبار من الدنيا وإقبال من الآخرة، وقد كنت في حياتك صديقًا، فكيف لا تكون وأنت في آخر عهدك من الدنيا، ولكن هل يتسع صدر خليفة رسول الله لي لأسأله عن بعضها.
- سل ما بدا لك يا بُني.

- لماذا بدأت وصيتك بقولك: أوصيك بتقوى الله يا عمر؟

- لأنني كنت أعرف أن السلطان فتنة لصاحبها، لأنه يملك القوة والمال، والناس أمامها ضعفاء، وإنه لمن النادر أن يملك أحد القوة والمال ولا يطغى، فأردت أن أذكره أن الله مطلع عليه، وناظر ما يفعل في السلطان الذي صار إليه، وفي المال الذي صار عنده، وفي الناس الذين صار أمرهم بيديه، وإن السلطان أحوج الناس أن يُخَوَّفَ بالله، لأن ليس إلا الله فوقه، فإن العامة إنما تخاف السلطان لأن القوة بيده، وتقربه لأن المال بيده، أما السلطان

فليس قوة في الأرض أكبر من قوته ليخشاها، وليس مال أكثر مما في يده ليطلبه، وقد أردتُ أن أخوّفه بالله، وأذكّره ليراقبه في أفعاله وأقواله، وسيره في الرعيّة!

- وماذا قصدتَ بقولك: إن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل؟
- أردتُ أن أقول له لا تُقْمُ بدين النَّاسِ وتنسَ أن تقوم بدينك! فإنما أنتَ عبد من عباد الله، فرض عليك أعمالاً وعبادات، فلا يشغلنك أمر الخلافة على أن تقوم بها، أردتُ أن أذكّره أن يحافظ على صلاته وصيامه، لأن الرعيّة على دين الراعي، إن زهد بالعبادة زهدوا معه، وإن جدّ واجتهد فيها جدّوا واجتهدوا معه، وإن أقبل على الدنيا أقبلوا معه، وإن أقبل على الآخرة أقبلوا معه، فإن الحاكم للرعيّة كالرأس للجسد، حيثما توجه تبعه الجسد!

- وماذا قصدتَ بقولك: إنه لا تُقبل نافلة حتى تُؤدى الفريضة؟
- أردتُ أن أقول له إنه لا شيء أحبّ إلى الله من أن يقوم العبد بما فرضه الله عليه، وأن العبد إذا فعل النوافل وترك الفرائض فقد أتعّب نفسه في غير الذي خُلق له، وإن قام بهما معاً فقد جمع الخير كله، فصيام السنّة كلها

تطوعًا لا يُعْغِي عن ترك صيام نهار واحد من رمضان
بغير عذر، وصلاة الفجر في جماعة أفضل من قيام
نصف الليل ثم النوم عنها، وإخراج ألف صدقة لا تغني
عن ترك الزكاة وإن كان مجموع الصدقات أكثر ما يجب
عليه من الزكاة، ذلك أن الصدقة نافلة والزكاة فريضة،
والإكثار من النوافل لا يجبره ترك الفرائض! وأردتُ أن
أذكره أن الله افترض على الحاكم أمورًا إن لم يعمل
بها لم ينفعه أن يعمل بسواها وإن كان سواها فيه خير
كثير، فقد أمر أن يقسم المال بالعدل بين الرعية، فلو
أخذته لنفسه ثم أنفق منه كثيرًا بعد ذلك عليهم خاب
وخسر، ذاك أنه لم يدفع إليهم حقوقهم، وكان في مظهر
من يمنح هبة وهو في الحقيقة قد منع حقًا!

- وما قصدتَ بقولك، إن الله ذكر آية الرحمة مع آية
العذاب ليكون العبد راغبًا راهبًا، لا يتمنى على الله غير
الحق ولا يلقي بيده إلى التهلكة؟
- أردتُ أن أقول أن القرآن قرن بين الترغيب والترهيب،
لأنه لو خاطبهم بالترهيب دون الترغيب لتقطعت
قلوبهم خوفًا، وعبدوه عبادة العبد الذي لا يطيع سيده
إلا خوفًا من السوط، ولو خاطبهم بالترغيب دون
الترهيب لعبدوه عبادة العبد الذي لا يأبه بسيده لأنه
أمن عقابه، أراد الله للناس أن يخشوه ويحبوه معًا، أن

يرهبوه ويطمعوا بما عنده، ومن رحمته سبحانه وهو
يُثَبِّتُ قدرته على العذاب يُذَكِّرُ بحلمه وعفوه، وهو
يعد بالحلم والمغفرة والصفح يُذَكِّرُ بقدرته وجبروته،
أراد لنا أن نعبده قارين الحُبَّ بالخشية، فإله يُحِبُّ أن
يُحِبَّ، ويُحِبُّ أن يُخْشَى!

- يا لها من وصيَّةٍ جامعةٍ يا خليفة رسول الله.
- بارك الله بك يا بُني.
- وبك بارك يا خليفة رسول الله، والآن أخبرني فهل
أوصيتَ أهلَكَ بشيءٍ؟
- بالطبع يا بُني وهل أوصي الناس، والخليفة من بعدي،
وأنسى أهلي؟
- فبِمَ أوصيتهم؟
- دعوتُ أولادي وقلتُ لهم: أما إننا منذ ولينا أمر
المسلمين لم نأكل لهم ديناراً ولا درهماً، ولكننا قد أكلنا
من جريشٍ / خشن طعامهم في بطوننا، ولبسنا من خشن
ثيابهم على ظهورنا، فانظروا ما زاد في مالي منذ دخلتُ
الإمارة، فابعثوا به إلى الخليفة من بعدي وابرأوا منهنَّ.
- فماذا فعلوا؟
- عندما متُّ نظرَ أهلي فيما تركته، فإذا عبدٌ نوبي كان
يخدمني، وبغير لي أركبه وأستعين به على قضاء أمري،

وقطيفة كنت ألبسها. فبعثوا بها إلى عمر، فلما وصلته
بكى حتى سالت دموعه على خده وهو يقول: رحم
الله أبا بكر لقد أتعب من بعده.

ثم قال لغلّامه: ضعها في بيت المال.
فقال له عبد الرحمن بن عوف: سبحان الله، تسلّب عيال
أبي بكر عبداً وبعيراً وثوباً ما تساوي خمسةً من الدراهم!
فقال له عمر: فماذا ترى؟
فقال: تردّهن على عياله.
فقال له عمر: والذي بعثَ محمداً بالحق لا يكون هذا
في ولايتي أبداً، ولم يكن أبو بكر ليخرج منهنّ عند الموت،
وأردهنّ أنا على عياله!

- فبأي شيء كفنوك يا خليفة رسول الله؟
- قلتُ لعائشة: بم كُفّتم النبي ﷺ؟
فقالَتْ: في ثلاثة أثواب بيضٍ كحولية يمانية ليس فيها
قميص ولا عمامة.
فقلتُ لها: فإذا متُّ أنا فخذوا ثوبيّ هذين فاغسلوهما
وكفنوني بهما.
فقالَتْ: أبتاه قد رزقَ الله وأحسن، نُكفّنك في جديد.
فقلتُ: إن الحَيَّ هو أحوج للجديد يصون به نفسه من
الميت، وإنما يصيرُ الميت إلى الصديد، وإلى البلى.
- تستخسرُ ثوباً جديداً ليكون كفنًا لك؟

- ما ينفعني الكفن الجديد، ولا يضرني القديم، فإني سألقى الله بأعمالي لا بكفني.

- فمن الذي غسَّلكَ يا خليفة رسول الله؟
- أوصيتُ أن تُغسلني زوجتي أسماء بنت عميس.
- وماذا عن مكان الدفن يا خليفة رسول الله؟
- أوصيتُ ابنتي عائشة أن أدفن في حجرتها إلى جانب النبي ﷺ.
- هنيئاً لك، صديقان في الحياة وفي الممات.

- بارك الله بك يا بُني، فهل لك من حاجةٍ قبل أن أمضي؟
- الأمة كلها لها حاجة أن تبقى يا خليفة رسول الله.
- يكفيني ما لقيتُ من الدنيا، وإن هذه الأمة في عين الله ورعايته، لا ينقطع فيها الخير، فالسلام عليك ورحمة الله وبركاته، فإني ماضٍ.
- وعليك السلام ورحمة الله وبركاته
ومضى كما أتى...

تفوح منه رائحة الصحراء...
عربيٌّ خالص لا شِية فيه...
في ظهره انحناء قليل ليليق بمن حمل الإسلام على كتفيه
طوال عمره.

